مدينة تونـس

مدينة تُونس هي عاصمة الجمهورية التّونسية وإحدى أهمّ المُدن الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسّط. وتطلّ على خليج تونس لجهة الشّرق حيث مرفأها التّجاري المُزدهر، وهي تتميّز بمناخها المتوسطيّ المُعتدل، وكثرة البساتين والحدائق، كما إنها مركزٌ مُهم من مراكز التجارة والصّناعة، وتتعدّد فيها المصانع التي تُنتجُ الأدوات الكهربائية والمنزلية، والمنسوجات القطنية والصّوفية والحريريّة، والزّيوت النباتية والصّابون، والمواد البلاستيكيّة والأدوية الزّراعية ومبيدات الحشرات والمُنظّفات والأسمدة، والأسمنت، كذلك فإنّها تُنتج بعضًا من الصناعات التّحويلية الحديثة.

يُعدّ مرفأ تونس من أهم المرافئ الواقعة على الشّاطئ الجنوبي الغربي للبحر المتوسط، وبه عدة أحواض لاستقبال السّفن من جميع البلدان. وفيها مطار دولي يتّسع لاستقبال أكبر الطائرات.

وفي تُونس العديد من الجامعات والمعاهد الفنية والصّناعية والزراعية، وأبر معالم تُونس جامعها التاريخي الشهير المعروف «بجامع الزيتونة» في قلب العاصمة، وهو مُميّز بعمارته وقِبابه وأقواسه وأعمدته الرُخامية، والخطوط العربية المنقوشة عليه، وأعمال السيراميك، وصومعته (أيّ مأذنته) التّي تقوم على قاعدةٍ مُربّعه الشكل كسائر مآذن شمال إفريقيا، وهي من أجمل المآذن.

وجامع الزيتونة في الوقت نفسه جامعة دينية وعلمية، على غرار الجامع الأزهر بالقاهرة، وقد تخرّج منه كِبار العُلماء أمثال ابن خلدون، وأبو الحسن الشاذلي، والبوصيري أبو الحسن علي، وهو صاحب القصيدة البوصيرية في مدح النبي المعروفة بالبُردة، وأبو القاسم الشابي، وغيرهم كثيرون. وتُعتبر منارة جامع الزيتونة مركز إشعاع ديني وعلمي هام، وأيضًا مكتبة الشيخ الشاذلي الخاصة التي تحتوي على 14000 عنوان مطبوع، و 1000 مخطوط يعود بعضها إلى 900 عام مضت، منارة كبيرة للعلم هي الأخرى. ويعود اسم جامع الزيتونة إلى أن البلاد التونسية اشتهرت بزياتينها، وقد كان هذا الجامع بمنزلة جامعة إسلامية تُنير العقول بهدي الإسلام، وأبرز من درس فيه خالد بن أبي عمران، وعلي بن زياد، واستمرت الثقافة الإسلامية في هذه الجامعة حتى خرجت فحول العُلماء أمثال القاضي ابن البراء، وولي الدين بن خلدون الحضرمي، وقد حافظ جامع الزيتونة على الشخصية التونسية أثناء الاستعمار الفرنسي. وجامع الزيتونة من أبرز ملامح العصر الإسلامي الذي بدأ في تونس مع دخول عُقبة بن نافع في مُنتصف القرن السابع الميلادي حيث شيد هذا القائد العربي مدينة القيروان، ومسجدها المعروف أيضًا، واتخذها عاصمة إسلامية، وفي عام 800 أسس إبراهيم بن الأغلب دولة الأغالبة التي استمر حُكمها لمُدة قرنين حيث ازدهرت خلالها البلاد.

والبلاد التونسية التي جملها الله بطبيعتها المتوسطية مما جعلها مهد الحضارات تعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام، فقد تأسست فيها مدينة قرطاج عام 814 ق.م، وازدهرت حتى نافست روما على السيادة في البحر المتوسط. ونري في الفترة الأخيرة من حُكم العثمانيين بتونس، حيث قامت ثورة عسكرية عام 1591م حدت من سُلطة الباشا العُثماني، وانتقلت السُلطة الفعلية إلى البايات واستمرت تونس محكومة من قِبلهم حتى عهد آخرهم

محمد الأمين باي، والأمراء الحسينيين الذين كانوا يتبعون للحُكم العُثماني ما بين القرن الخامس عشر وحتى الثامن عشر، وعندما جاء الفرنسيون تابع البايات حُكمهم شكليًا، ومما يُلفت النظر أن الأضرحة المصنوعة من رخام إيطالي كانت مُستطيلة الشكل يرتكز عليها عمود في أعلاه شكل الطربوش الذي كان يرتديه الباي الذي يرقد في الضريح، ومما يزيد ذلك المكان رونق زخرفة جُدران المبنى من الداخل بالرُخام المنقوش، وفي صدر قاعة قبور البايات كانت بعض البيارق أو السناجق الخضراء التي ترافق الباي أثناء جولته الرسمية مع رجاله في الأسواق، ولعل أجمل قاعات هذا المبنى تلك التي ترقد فيها الفتيات اللواتي وافتهن المنية وهُن عازبات، فقد كانت القاعة مُدهشة بجمالها الزُخرفي، وبصفاء ألوانها، وبإنارتها سواء الكهربائية أو الطبيعية. وأيضًا دار ابن عبد الله التي تُعتبر مُتحفًا للتقاليد والزى التُونسي، وفي هذه الدار يحصل الزائر على فكرة مُتكاملة عن الحياة اليومية للأسرة التونسية في مطلع هذا القرن، فمُعظم البيوت كانت غُرفها منظمة على شكل حرف T وفيها مكان للأطفال، ومكان مُخصص للضيافة وللأب رب الأسرة، ومُستلزمات المنزل سواء من أدوات الاستحمام أو أدوات المطبخ، وحال مُعظم القاعات في هذا المُتحف كحال المتاحف الأخرى في تونس وفي البلدان العربية حيث تضم الخزائن أزياء النساء سواء من حيث المُناسبات أو من حيث الأعمار أو المكان أو من حيث المنزلة الاجتماعية، كما تشتمل على أزياء الأطفال وربما أن أجمل أزيائهم ذلك المخصص لحفلة الختان، كما يحتوي المُتحف على تفصيلات لحياة الرجل وملابسه كالشال والملوسة (الطربوش) و(البُرنس الأبيض) للمُناسبات، أما الأسود فهو اللباس الاعتيادي، وأما عموم لباس الرجل فينقسم إلى قسمين حسب المذهب الحنفي والمذهب المالكي، وفي قاعة الرجال بدا كُلٌ حسب منزلته الاجتماعية.

والفكرة الرائعة سواء في دار ابن عبد الله أو في باب زويلا بالمهدية هي (المواجل) أي الآبار التي تمتد إليها فوهات أنابيب مُمددة من السطح الواسع حيث تتجمع مياه الأمطار وتتجه للأنابيب التي تنقلها للآبار النظيفة التي تُعتبر مخازن أرضية للمياه، وهذه واحدة من أبرز أساليب تأمين المياه قديماً. ومع كثرة الملامح التي تُعجب زائر تونس سواء من حيث الطبيعة أو التراث فإن هُناك فكرة رائعة برغم بساطتها، فبالإضافة إلى أشكال الأبواب كباب خضرا وباب سعدون وباب العسل وغيرها، وبالإضافة إلى جمال الطبيعة فإن اللافتات التي تدعو الناس إلى حضور الأنشطة الثقافية وفي مجالات عديدة تُغطي الجُدران وتتوزع في مُختلف الأمكنة، وهذا أحد أساليب الدعوة والإعلان عن الفعاليات الثقافية. وسارت الحركة التشكيلية التونسية على سكة واضحة وخط قويم، والفن التشكيلي قديم حيث عُرفت مدرسة صفاقس بالرسم على الزُجاج في عام 1840م، وتطورت الحركة الفنية حتى تعددت المعارض وتنوعت التجارب التي كانت مُحتشمة وخجولة فيما مضى، والإبداع التشكيلي حُر بطبيعته. والجميل أن في كُل مكان في تونس نجد الثقافة قد دب دبيبها فيه، والأجمل من ذلك أن الشعب متجاوب مع فعاليات هذه الظاهرة، ولسان حال الصحافة يتغنى بها بشكل يومي وآذانها مُرهفة تترصد الفعاليات المُقامة تحت هذا الشعار، لذا أصبحت تونس جديرة بأن تكون عاصمة ثقافية.

وتُونس تُعتبر مدينة تاريخية قديمة، وكان اسمها في القديم ترشيش، وكان يُحيط بها سور حصين طوله 21 ألف ذراع، ولها خمسة أبواب، أهمّها باب الجزيرة القِبلي، ويخرجُ منه إلى القيروان ويُقابله جبل التّوبة، وكان أهلها يشربون من الآبار والمجامع التّي يتجمّع فيها ماء المطر، وفي كُلّ دارٍ مجمع، وهي من أصح بلاد إفريقيا هواءً، وأطيبها ثمارًا، وأنفسَها فاكهةً، ومنها اللّوز

الفريك، والرّمان الضّعيف الذي لا عجو له البتّة، والتين الخارمي الأسود الرّقيق القشر والكثير العسل، وغيرها من الفاكهة الطّيبة والعنّاب، وفيها من أجناس السّمك ما لا يُوجد في غيرها، حيث يُملّح فيبقى لمُدةً صالحًا للأكل.

تَحّدثَ القُدماء عن القصر الذي كان يُشرف على تُونس وعلى البحر، وعن الغار الموجود في أسفل جبل التوبة المُطل على المدينة، كما تحدثوا عن جامعها الرّفيع البناء المُطل على البحر. وتحدثوا عن أسواقها الكثيرة ومتاجرها وفنادقها وحمّاماتها ودور أهاليها المبنيّة بالرّخام البديع.

وقعت تونس تحت حكم الرّومان، وافتتحها العرب في عهد عبد الملك بن مروان، ومن **أهم معالمها الأثرية التي تحدث عنها التاريخ:**

1 ـ مُتحف باردو القومي وهو أكبر المتاحف التونسية، ويحوي آثارًا من مختلف أنحاء الجمهورية. ويشتهر بصفةٍ خاصةٍ بما يحتوي من فُسيفساء، وبعض قاعات المُتحف كانت في الأصل جُزء من قصر الباي السّابق.

تضم الآثار المعروضة في المُتحف آثارًا تمثّل عصر ما قبل الميلاد، وآثارًا رومانيةً ومسيحيّةً وإسلاميةً.

2 ـ المُتحف القومي للفنون الإسلامية، وهو يُمثّل بيتًا عربيًا يعود إلى القرن الثامن عشر للميلاد.

ويحتوي هذا المُتحف على عددٍ من الأشياء المصنوعة في تونس والمشرق،

كالأواني الزُجاجية والأواني المصنوعة من الفخار، بالإضافة إلى الأقمشة والمخطوطات... إلخ.

3 ـ المُتحف الإقليمي للفنون والتراث الشعبي وهو عبارة عن بيت جميل يرجع بناؤه للقرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي. ويعرض هذا المُتحف الملابس والمجوهرات والأدوات المنزلية... إلخ، التّي تُمثّل العادات والتقاليد التونسية القديمة.

4 ـ مُتحف القطع النّقدية، وفيه مجموعةٌ كبيرةٌ من القطع النقدية التّي تمّ اكتشافها في تونس، وتعود إلى عهد الحضارة القرطاجية حتّى الآن.

5 ـ مُتحف الطّوابع التّذكارية، ويعرض تاريخ النظام البريدي التونسي مُنذ نشأته، ويبرز ذلك بالصُّور والمُستندات والطوابع، كما ويُمكن شراء بعض الطوابع التذكارية منه.

6 ـ المعهد القومي للدراسات المائية في سلامبو، وهو معرض للأبحاث المائية، حيث تُعرَض فيه حياة الكائنات البحرية.

7 ـ مُتحف قرطاج القومي، ويعرض هذا المُتحف تاريخ قرطاج، والحضارة الرومانية، وقد تمّ تجديده مُؤخّرًا وجرى تقسيمه إلى أربعة أقسام: ما قبل التاريخ، حضارة قرطاجة، الحضارة الرومانية، والحضارة المسيحية.

8 ـ مُتحف سلامبو ويعرض الأماكن القديمة التي كانت تُقدَّم فيها القرابين لآلهة قرطاجة.

9 ـ حمّامات أنطونيوس، وهي حمّامات رومانية ضخمة، وأحياء رومانية قديمة بشوارعها ومبانيها الأثرية، هذا بالإضافة إلى وجود متاحف

صغيرة تقع تحت الأرض، وأعمدة وأحواض تعود لعهد قرطاجة القديمة.

10 ـ المُنتزه الأثري وهو يعرض آثار قرطاجة وروما القديمَتين، وتُعرَض الآثار الرومانية في الهواء الطلق، فالأمر الذي يجعل منظرها خلاّبًا.

ومن صناعاتها اليدويّة التي تمتاز بها:

تمتاز تونس بتاريخها الطّويل في الصّناعات الحِرَفية اليدويّة، وقد اكتسبت خبرةً في هذا المجال من الحضارات والشعوب المختلفة التي مرّت بها، فترى في السّوق الصواني النّحاسية المُزخرفة والأواني المنزلية الجميلة وتحفًا من خشب الزيتون المحفور والحقائب الجلدية والتحف المكتبية والبلاط الصّيني والأوعية الفخارية والتطريز اليدوي الرائع والمجوهرات الفضية المعدنية بصفةٍ خاصة، والسّجاد والبسط والمنتجات الفاخرة منتشرة بشكلٍ واسع في مختلف أسواق تونس. ويشرف على صناعة هذه الأشياء بشكلٍ دقيقٍ المكتَبُ القومي للفنون اليدوية[1].

***

القيروان

تقع القيروان في الصحراء جنوبي تونس، وتُعرَف أيضًا باسم رابعة الثّلاث بعد مكـة المكرّمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، ذلك لأنّها أقدم وأوّل مدينةٍ إسلاميةٍ في المغرب، وقد بناها القائد عقبة بن نافع لتكون قاعدةً لنشر الإسلام في المغرب العربي وإفريقيا.

(1) صنفتها منظمة اليونسكو مدينة تراثية عالمية عام 1982

وبناء القيروان بهذه المنطقة لا يعني أنّها شكّلت أوّل وجودٍ بشريٍ حضاريٍ هناك، إذ أنّ المنطقة كانت مأهولةً مُنذ القِدَم، حيث بيّنت الاكتشافات الأثرية وجود أدواتٍ حجريةٍ للإنسان القديم، وبعثرتها عوامل الانجراف على ضفاف وادي مرق اللّيل في منطقة العلا.

وحين تَوَسّط عقبة بن نافع الصحراء حيث تونس الحالية، توقّف عند منطقةٍ رآها صالحةً لتُعَسكر فيها قوّاته، ورأى فيها ملاذًا آمنًا لاستراحة القوافل التي تنتقل بين الشّرق والغرب، فحطّ فيها الرّحال، وخطّ بعصاه على الأرض حدود المُعسكر. فكان اختيار عقبة لهذه المنطقة عن بُعد نظر. فهي تقع في جوف الرّوابي على منتصف الطريق بين الحصون والشواطئ البيزنطية، ومخابئ البربر الجبلية، فاتخذها محطةً لاستراحة القوافل ومركزًا لانطلاق الإسلام، وأطلق عليها اسم «القيروان»، ومعناها في اللغة العربية القافلة.

لمّا كان موقع المدينة بعيدًا عن العمران في وسط الصحراء، كانت آمنةً من هجوم الأعداء. لكن عزلتها هذه لم تمنعها من أن تكبر وتنمو. وكان أوّل ما شُيِّدَ فيها هو دار الإمارة والمسجد الجامع، وكان بادئ الأمر فضاء ليس فيه بناء، ويُصلّى فيه كذلك. وبعد تحديد محراب المسجد اقتدى به الناس، فصارت القيروان من أهم مُدن إفريقيا والمغرب.

تختلف القيروان عن المُدن العربية القديمة في أن كلّ قبيلةٍ نزلت بها لم تكن تختصّ بمكانٍ مُعيّن من المدينة كما هو الحال في باقي المدن الإسلامية. أمّا بالنسبة إلى تخطيطها، فقد اتُبِعَ تخطيط المدن السابقة نفسه، حيث يبدأ بتخطيط المسجد ودار الإمارة، ويلي ذلك السوق والمساكن والطرق والشوارع.

كان للقيروان سور له 14 بابًا. وكان سوقها مُتّصلًا بالمسجد من جهة القبلة وممتدًا إلى بابٍ يُعرَف باسم باب الرّبيع. وكان لهذا السوق سطح تتّصل به جميع المتاجر والصّناعات.

أقيمَت حول القيروان أسوار عالية تطوّرت على مدى التاريخ لتكوّن قلعةً حصينةً تصدّ عنها حجارتها المتراصة هجمات الغزاة، ولم ينقطع أهل القيروان عن إصلاح الأسوار مرةً بعد مرّةٍ، لأن الهجمات كانت تنكسر فوق هذه الأسوار، وإن كان يصيبها الكثير من الهدم، ومن ذلك ما حدث حين قامت المدينة ثائرةً ضد حكم الأغالبة، وما حدث أيضًا عند الغزوة الهلالية (بني هلال). وقد صمدت القيروان في منتصف القرن الثامن عشر أكثر من خمس سنواتٍ على الحصار المفروض عليها، بل أجبرت الحاكم على دفع تعويضاتٍ لها.

وأثناء الحرب العالمية الثانية، هدم الألمان قسمًا من القيروان لاستعمال حجر الطّابوق لبناء مدرجٍ للطّائرات.

وممّا يُميّز القيروان أنّها لم تفارق أسس تنظيمها إلى اليوم، فحافظت على نسقها المعماري الأصيل. وما يزال مسجد القيروان، أشهر مساجد إفريقيا والمغرب العربي، شاهدًا على أصالة المنطقة. فقد وضع أساسه وتصميمه عقبة بن نافع وجرى تطويره على تتابع القرون والأزمنة، وله أعمدة عديدة ومتنوّعة تعود لمعابد رومانية وكنائس بيزنطية. ويُعتبر من أزخر التّراث الإسلامي في تونس ويؤمّه الكثير من السيّاح سنويًا[1].

***

المنستير

تمتدّ على طول السّاحل التونسي جنوب شرق سوسة، فتمرّ ببساتين الزيتون، سبخة صغيرة وواحة الدّخيلة حتى الدخول إلى المنستير، بمسافة 25 كلم على الجهة الجنوبية لخليج الحمّامات.

كانت المنستير فيما مضى قلعةً بيزنطيةً وحصنًا (رباطًا) إسلاميًا ومدينةً مقدّسةً بعد انحدار أهميّة القيروان في القرن الحادي عشر، كمركز للحج. فتحها الأتراك بعد الأسبان. وبعد الاستقلال جعلها الحبيب بورقيبة، وهي مسقط رأسه، نموذجًا لتونس.

(1) صنفتها مُنظمة اليونسكو مدينة تُراثية عالمية عام 1979م.

أهم حصن لبني تغلب يقع بالقرب من البولفار الساحلي الذي يوجد فيه مُتحف إسلامي يحوي معروضات منذ العصر الأموي حتى العصر التّركي، ويُقام فيه في الوقت الحاضر مهرجان الصّوت والضوء في فصل الصّيف. كما يوجد في المنستير الجامع الكبير الذي يعود تاريخه إلى القرن التّاسع الميلادي، ومُتحف التاريخ الوطني، وجامعة واستوديوهات السينما وملعب كبير.

***

تطوان

اكتسبت منطقة تطوان المغربية خلال العهد الإسلامي أهمية كبرى، إذ كانت بمثابة نقطة عبور ما بين شبه الجزيرة الإيبيرية والمغرب. ولم تظهر أهميتها إلا في نهاية العصر الوسيط، وخاصة بعد سقوط مدينة سبتة ومراكز ساحلية أخرى في أيدي الغزاة الأسبان والبرتغاليين.

في عام 1286 م شيّد السلطان المريني أبو يوسف يعقوب قصبة محصنة بتطوان بهدف الحد من الأخطار الخارجية. ومع بداية القرن الرابع عشر، عرفت المدينة تطورًا مهمًا سرعان ما اضمحل بسبب تعرضها للنهب والتخريب من طرف الأسبان. وفي نهاية القرن الخامس عشر، أعاد بناءها السلطان محمد الشيخ الوطاسي بمساعدة مهاجرين أندلسيين، لتعرف مع بداية القرن السادس عشر توسعًا معماريًا كبيرًا خصوصًا في جزأيها الجنوبي الغربي (حي الرباط الأسفل) والشمالي الشرقي (حيّ الرباط الأعلى).

وقد استمر هذا التطوّر المعماري حتى منتصف القرن الثامن عشر مع إعادة بناء التحصينات التي أعطت للمدينة صورتها الحالية.

تحتوي مدينة تطوان على عدة أزقة رئيسة تربط بين أبواب المدينة وساحاتها وبناياتها العمومية، كالفنادق والمساجد والزوايا، إضافة إلى مختلف الأحياء التجارية الأخرى الخاصة بالحرف التقليدية. كما تخترق المدينة عدة أزقّة ثانوية تضارع النسيج الحضري للمدينة، الذي يتكون من ثلاثة أحياء هي: الرباط الأعلى والرباط الأسفل وحارة البلد. هذا الأخير يعتبر أقدم أحياء تطوان وأحسنها صيانة، حيث تتمركز جل الورشات الخاصة بالحرف التقليدية وأهم المعالم التاريخية، كقصبة سيدي المنظري والمسجد ومخازن الحبوب وبعض الدور السكنية المتميزة عمرانيًا والتي يغلب عليها الطابع الهندسي المورسكي. وقد تم تسجيل تطوان تراثًا إنسانيًا عام 1998.

يحيط بمدينة تطوان جدار دفاعي طوله 5 كلم وسمكه 1.20 متر. أما علوه فيتراوح بين 5 و7 أمتار. وتلتصق به من الخارج عدة دعامات وأجهزة دفاعية مُحصنة، مثل قصبة جبل درسة في الشمال وأبراج باب العقلة وباب النوادر والبرج الشمالي الشرقي، وتخترق هذا الجدار من كل الجوانب سبعة أبواب.

بُني هذا السور على عدة مراحل ما بين القرنين 15 و18م، إلا أنه

عـرف أعـمال هـدم وتخريب خلال منتصف القرن 18م أثناء الأحداث التي شهدتها تطوان بعد وفاة المولى إسماعيل. ثم أعيد بناؤه في الفترة نفسها إبان حكم سيدي عبد الله بن المولى إسماعيل.

تحتل قصبة سيدي المنظري الزاوية الشمالية الغربية للمدينة، الشيء الذي يُمكّنك من مراقبة كُل الممرات انطلاقًا من المرقاب الذي يعلو أحد الأبراج. وقد بُنيت كل المعالم الداخلية للقصبة خلال القرن الخامس عشر أثناء فترة إعادة بناء المدينة. وهي تتكون من قلعة ومسجد جامع ودار وحمام صغير. وكانت تشكل فيما مضى مركزًا للسلطة الحاكمة، وقاعدة عسكرية، هذا إضافة إلى مقر للسكن بالنسبة لمؤسّسها.

يقع جامع القصبة بالحي الذي توجد فيه بقايا حصن سيدي المنظري وسط المدينة العتيقة. وقد بني من طرف سيدي المنظري مع نهاية القرن 15. صمم هذا الجامع على شكل مربع يصل طول أضلاعه إلى 20 مترًا. وهو لا يتوفر له صحن، ويتم الدخول إليه عبر ثلاثة أبواب، الأولى جنوبية والثانية شمالية أما الأخرى فغربية ومجاورة للصومعة. هذه الأخيرة ذات شكل مربع وهي تنتصب في الزاوية الشمالية الغربية. ويرتكز المسجد على أعمدة تعلوها أقواس مكسورة وهو مغطى بسقوف خشبية مائلة مغطاة بالقرميد، ويجاور ضريح سيدي عبد القادر التابين الجزء الجنوبي لسور المدينة، وهو يقع بالقرب من حدائق مولاي رشيد. تضم هذه المعلمة قبر الشريف سيدي عبد القادر التابين الذي ينسب إليه بناء مدينة تطوان خلال الفترة الموحدية (القرن 12م).

أما الجامع الكبير فيقع في حي البلد بالقرب من الملاح البالي وسط المدينة العتيقة. تم بناؤه على شكل مستطيل بإذن من السلطان المولى سليمان في عام 1808م. ويصل طول أضلاعه إلى 35 مترًا من جهة الشرق و45 مترًا من جهة الشمال. ويتكون من قاعة عميقة للصلاة وصحن كبير مكشوف تتوسطه نافورة ماء تصب مياهها في صهريج. وتحيط بالصحن أروقة.

يتم الولوج إلى المسجد عن طريق بابين رئيسيين وثالثة مخصصة للإمام في الجهة الشمالية. وترتكز الأقواس المتجاورة والمكسورة لقاعة الصلاة على أعمدة مبينة ويعلوها سقف خشبي مائل مغطى بالقرميد. وفي الزاوية الجنوبية الغربية ترتفع المئذنة التي تعد الأعلى بالمدينة، وهي مزخرفة على الواجهات الأربعة بعناصر هندسية متشابكة تتخللها زخارف زليجية تطوانية مُتعددة الألوان.

تتوفر لمدينة تطوان أكثر من 20 سقاية تمكّن السكان والزائرين من التزود بالماء. وهي سقّايات عمومية تم بناؤها إما من طرف السلطات أو أعيان المدينة ويرتبط بها صهريج لسقاية البهائم. ومن أجمل السقايات الموجودة بالمدينة والتي تتميز بزخارفها الزليجية الجميلة، نذكر سقاية باب العقلة. وقد بنيت كما تشير إلى ذلك كتابة منقوشة على إفريز من الزليج في منتصف القرن 18م من طرف القائد وعامل المدينة محمد لوكاش.

ولتطوان عدة منازل تقليدية وقديمة تجسد التطور العمراني الكبير والفني والزخرفي الذي شهدته هذه المدينة التي يشار إليها على أنها وليدة غرناطة. من بين أجمل هذه البيوت نذكر دار اللبادي التي بنيت وسط المدينة

القديمة من طرف الباشا اللبادي خلال القرن 19م. وقد تغيرت وظيفتها حاليًا لتصبح قصرًا للحفلات والأفراح.

بنيت مدرسة جامع لوكش عام 1758 من طرف القائد عمر لوكش، وذلك بأمر من السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقد كانت المدرسة تسخّر لإقامة الطلبة القادمين من المناطق المجاورة لطلب العلم في مساجد المدينة وخاصة بالجامع الكبير. وهذه المؤسسة العلمية ذات شكل مستطيل طوله 25م وعرضه 18م وتضاف إليها في الزاوية الشمالية إحدى البنايات التي زيدت لاحقًا وتستعمل كإدارة.

بُنيت المدرسة على طبقتين: فالطبقة السُفلى تتكون من 20 غُرفة مساحاتها تتراوح بين 3 إلى 6 أمتار مربعه وهي مفتوحة على رواق مغطى يؤدي إلى ساحة تتوسطها حديقة مساحتها أكثر من 100 متر مربع.

يرتبط اسم قلعة أو حصن سيدي المنظري ببقايا سور وثلاثة أبراج ملتصقة به. هذا السور الذي يبلغ طوله 65 مترًا وعلوه 7 أمتار، مدعم من جهتيه الجنوبية والشمالية ببرجين مربعي الشكل، ويتوسطه برج آخر متعدد الأضلاع وأصغر حجمًا. وتتصل هذه الأبراج فيما بينها بممر حراسة يتم الدخول إليه عبر درج محاذٍ لباب القصبة. هذا الأخير عبارة عن جهاز دفاعي ذي انعطافات، وبداخله غرفتان مربعتان مغطاتان بقبة دائرية [1].

***

(1) صنفتها منظمة اليونسكو مدينة تُراثية عالمية عام 1988م.

مدينـة بِنْـزِرْت

بِنْزِرْتُ مدينة تونسية تقع على ساحل تونس الشمالي، شمال غربي العاصمة وتبعد عنها بأكثر من ستين كيلو مترًا، وذلك في موقع استراتيجي يتحكم في ممر بنتلاريا الذي يربط بين حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي. ويعتقد أن بنزرت شغلت موضع مدينة هبود يرتوس الفينيقية التي استولى عليها الرومان فيما بعد، وحكمها الإمبراطور أغسطس.

وعلى الرغم من أهمية موقع بنزرت إلا أن هذا الموضع الذي تشغله ما بين البحر والبحيرة لم يتح لها الامتداد والتوسع، فلم تكن منذ أنشئت إلا مدينة صغيرة تميزت بكثرة أسماكها ورخص أسعارها وبأسواقها وبساتينها، وقد وصفها ابن حوقل في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، بأنها مدينة صغيرة أقل شأنًا من مدينة سوسة. وبنزرت الآن مدينة صغيرة ومركز لولاية بنزرت وعدد سكانها، حسب تعداد عام ألفٍ وتسعمائة وأربعة وثمانين ميلادية، أربعة وتسعون ألفًا وخمسمائة وتسعة نسمات وهي تحاول أن تستعيد نشاطها في صيد أسماك السردين والماكرو والجمبري، الذي تميزت به، والذي تدهور فيما بعد. وهناك جهود طيبة من الديوان القومي لصيد الأسماك كي تسترد بنزرت منزلتها في هذا المجال. وهناك صناعات حديثة في بنزرت مثل الحديد والفولاذ وإصلاح السفن ومصنع للجرارات الزراعية وصناعة الأسمنت ومصفاة للنفط.

مدينة الجـــزائر

أهم ما يُميز الجزائر التضاريس، حيث أن أخفض نُقطة هي شط ملهرير وتبلغ 40م تحت سطح البحر، وأيضًا تُعتبر أعلى نُقطة هي طاهات وتبلغ 3003م.

الجزائر دولةٌ عربية مُستقلّة وعضو في جامعة الدّول العربيّة. وتقع على ساحل البحر الأبيض المتوسّط، وفي شمال القارّة الإفريقية، ويحدّها شمالًا البحر المتوسّط، وغربًا المملكة المغربية، وجنوبًا موريتانيا ومالي والنّيجر، وشرقًا تونس وليبيا، عاصمتها مدينة الجزائر، واللّغة الرّسمية هي العربيّة، والعُملة المُتداولة هي الدّينار الجزائري، وأهمّ مُدنها: وَهْران، وعنّابة، وقسنطينة، وتلمسان.

وكانت الجزائرُ خاضعةً لقرطاج في القرن السّابع قبل الميلاد، ثُم احتلّها الرّومان عام 42 ق.م، وفتحها العرب عام 682م، وخضعت لحُكم الفاطميّن وبني عبد الواد والحفصييّن، وفي عام 1518م خضعت لحُكم العثمانييّن، ثُمّ احتلّها الفرنسيّون عام 1830م، وفي عام 1954م، واندلعت الثّورة الجزائرية من أجل التّحرير، فنالت استقلالها عام 1962م.

يُحدّثنا التاريخ عن هذه المدينة التي كانت قديمًا مركزًا تُجاريًا للفينيقييّن، ومن ثم مُستعمرةً تابعةً لمدينتهم قرطاجة، وبعدهم جاء الرّومان ثمّ البيزنطيون حتّى قدوم العرب، وفي عام 935م أعاد الأمير بولوجني بناء مدينة الجزائر، وسمّاها بهذا الاسم تيَمُّنًا بأسماء الجُزُر الواقعة قبالة الشّاطئ.

تقعُ مدينة الجزائر إلى الجهة الغربية من خليج كبير كان السّبب في انتعاشها تجاريًا، وإلى الغرب منها تقعُ المنارة وقيادة البحرية الجزائرية. والواجهة

البحرية في المدينة عبارة عن ميناءٍ يضمّ 12 رصيفًا، وهي امتدادٌ لأرصفة هذا الميناء حتّى شارع جيش التّحرير الوطني الذي يتّجه داخليًا قاطعًا وادي الحراش، باتّجاه جامعة باب الزّوار حتّى مطار هواري بومدْين.

عندما استقلت الجزائر عام 1962م كان كُل شيء مُفرنسًا، فكل شيء مكتوبًا بالفرنسية، وكذلك أسماء المدن فرنسية، مثلًا الجزائر (آرجي)، وعنابة (بونة)، ووهران كانت تسمى (أوران)، وبعد الاستقلال أرادت الجزائر أن تُعيد وجهها الإسلامي مرة أخرى، فقامت بثورة أُطلق عليها «ثورة التعريب» أو «المعركة من أجل التعريب»، وكانت بالفعل معركة لا تقل ضراوة وعُنفًا عن المعركة المُسلحة ضد العدو.

وقبل أن تقع الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي كانت ولاية تابعة للخلافة العثمانية، وكانت الجزائر إلى جانب أقطار شمال إفريقيا لديها ولاء شكلي للوالي العُثماني، ولكنها عمليًا كانت تُدير عملها بنفسها، ورغم هذا الولاء إلا أن اللغة التركية لم تنتشر في الجزائر بل كانت مقصورة على الحُكام العُثمانيين وعلى قطاع مُعين من الجيش الذي كان يُسمى «الإنكشارية»، أما التعليم فكان يتم من ألفه إلى يائه باللغة العربية، في المدارس والمساجد والزوايا والكتاتيب.

كما أن الإدارة كانت تسير باللغة العربية، ولكن بعدما جاء الاحتلال الفرنسي عام 1830م تغيرت أمور كثيرة، وعمل الاستعمار على تغيير البنية الأساسية للبلد، ولعل من أهم المحاور التي عمل عليها الاستعمار الفرنسي لإحكام السيطرة على الجزائر أنَّ السياسة الفرنسية بعد الاحتلال اتخذت أربعة محاور وهي (محور الفرنسة، ومحور التنصير، ومحور التفقير، ومحور الاندماج، والتجنيس)، أما محور الفرنسة فقد قامت بإبعاد اللغة العربية

وأحلت مكانها التعليم الفرنسي، وألغت الإدارة الجزائرية القديمة وأنشأت إدارة مفرنسة 100 ٪، واستمرت هذه السياسة حتى استقلال الجزائر، وأما سياسة التنصير فقد قامت باحتلال المساجد والسيطرة عليها، وحولت المساجد المهمة إلى كنائس وكاتدرائيات، وقد تم إرجاعها بعد الاستقلال إلى مساجد، وأما التفقير، فكما هو معروف أن الجزائر بلد زراعي من الدرجة الأولى وبه أراض زراعية خصبة، وقد قام الاستعمار بنزع ملكية الأراضي من الجزائريين وأعطوها للأوربيين الذين أحضروهم لملء الجزائر بهم، أما المحور الأخير فهو الخاص بالتجنيس والاندماج، فقد قامت فرنسا بفرض جنسيتها على الجزائريين، فمثلا الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهو من كبار رجال الإصلاح والسلفية كان مكتوبًا في بطاقته «مُسلم فرنسي»، ففرنسا كانت تعترف بالإسلام كدين وتنكر علينا جنسيتنا العربية، لأنها أرادت أن تمسح شخصية الجزائر العربية وتجعلها جزءًا من فرنسا، ولهذا تم عام 1938م إصدار قانون رسمي بأن اللغة العربية في الجزائر هي لغة أجنبية، أي أن الشعب الجزائري شعب فرنسي.

أرض الجزائر عبارة عن صحراء واسعة. وثمّة سهل ساحليّ في الشمال على امتداد المتوسّط، وجبال أهمّها: سلاسل أطلس التلّ، وهي بموازاة السّهل السّاحلي، وجبال أطلس الصّحراء باتّجاه الجنوب، وفيها أعلى قمّة، هي قمّة تاهات وارتفاعها3303 م. وثمة جبال القبائل والأوراس وأولاد نايل والزّاب.

ليس في البلاد أنهار دائمة الجريان، وإنّما هي أودية تمتلىء بالمياه في الشّتاء، ثم تنضبّ لتتحوّل إلى مراعٍ خصبةٍ أو لتصير أحواضًا مُغلقة تُعرَف باسم «الشّطوط»، وأهمها: شطّ الحَضنة وملفيج، وتتكوّن من صحارٍ رمليّةٍ (العرق) وحجريّةٍ (جمادة).

والجزائر هي ثاني أكبر بلدٍ إفريقيٍّ بعد السّودان، وتضمّ المنطقة الشّمالية، التي تمتدّ من سلسلة جبال الأطلس إلى البحر، ومناخها متوسطيّ مُعتدل شمالًا، واستوائي حار وجاف في الدّاخل والجنوب. وهناك تفاوتٌ كبيرٌ في درجات الحرارة، فمُعدّل الحرارة يُحدّد بـ 36°مئويّة في النّهار و5° في المساء. في الجنوب الجزائري واحات كثيرة، أشهرها واحة أنفوسة وورقلة، وحاسي مسعود في الجنوب الشرقي. وأشهر زراعات الجزائر: زراعة الحبوب والقمح والنخيل والكروم والحمضيات والزيتون والبصل والجزر والشّعير والتبغ، كما تُربّى فيها الماشية بأعدادٍ كبيرةٍ (أغنام، ماعز، أبقار).

يُشكّل النّفط والغاز الطّبيعي ثروة البلاد الرّئيسة، وأهم مواردها تتمثّل في الغاز الطبيعي المُسيّل، ومن أهم آثار الجزائر سجن «بولبراوس» المعروف، وهو أقدم سجون المدينة، وكان معظم قادة الثورة الجزائرية قد سُجنوا في زنازينه الضيقة التي كانت تغلق بينما يظل السجين واقفًا حتى يخر منهارًا، وكذلك قصر الداي الذي يقع في أعلى نقطة من حي القصبة، يشكّل رأس المثلث له، وقد تم إنشاؤه في البداية ليكون قلعة عسكرية دفاعية، وتأسيسه كان في عام 1000 هجرية «1519م»، وقد ظلت تلك القلعة محافظة على الطابع العسكري والدفاعي طيلة فترة وجود العثمانيين في الجزائر وحتى العام 1817م عندما صعد الداي «علي خوجة» إلى قصره القديم بالقصبة السفلى لأسباب أمنية، وأصبحت القلعة منذ ذلك التاريخ مقرًا سياسيًا وعسكريًا، ألحق بها فيما بعد قصر البايات والمسجد الرئيسي ومسجد القوات الإنكشارية، وقد تم تسوير القلعة بالحدائق الصيفية والشتوية حتى اصطبغ المكان بنوع من رفاهية الحكام، وبعد عام 1818م جاء إليها الداي حسين حيث بقي بها 12 عامًا أنهاها بحادثة المروحة الشهيرة مع القنصل الفرنسي والتي أدت إلى احتلال الجزائر من قبل القوات الفرنسية عام 1830م ...

وقصر «رياس البحر» أو ما يُطلق عليه مركز الثقافة والفنون، وهذا المبنى الذي بُني في القرن 16 الميلادي بعد احتلال العثمانيين للجزائر، ويُمثل نموذجًا للطراز العمراني المُنتشر في شمال إفريقيا، وفيه كان يقيم «رياس» البحر أو البحّارة، غير أن قصته تبدأ بحصار الفرنسيين للجزائر من عام 1827م حتى عام 1830م حيث جرت معارك عدة انتهت بنجاح الفرنسيين في فرض سيطرتهم على الجزائر، ويتكون هذا القصر، الذي صنّفته اليونسكو منذ عام 1998م في إطار حي القصبة كأحد المعالم التراثية العالمية، من ثلاثة قصور كبيرة، وبنيت جميعها فوق آثار رومانية مازالت باقية، فهناك حمام محفور في إحدى غُرف القصر الأوسط، أما منارته التي مازالت باقية على حالتها، فهي تعود إلى القرن 16م، وبلدة «المعاضيد» شمال شرق المسيلة التي يقع في إطارها الموقع الأثري للدولة الحمادية «قلعة بني حماد»، في الطريق وسلسلة جبال «تقر بوست» ومعناها بالبربرية «سرج الحصان» وهي تُشبه عند قمتها ذلك السرج، وبقايا «باب الأقواس» من الناحية الشمالية للقلعة مازالت باقية تُقاوم الزمن وتغيرات المناخ، فيما اندثر البابان الآخران، «باب الجنان» بالناحية الشرقية و «باب جراوة» بالناحية الغربية.

لكن داخل مُحيط تلك القلعة الشاسعة تُوجد آثار عِدة لمباني القلعة، ومنها المسجد الكبير الذي يصل طوله 63 مترًا وعرضه 53 مترًا، وهو من أكبر المساجد الجزائرية حيث جدرانه محصّنة بدعائم وله بيت صلاة يحتوي على مقصورة كبيرة لم يبق من محرابه سوى القاعدة، أما صحنه المفصول من بيت الصلاة بواسطة جدار، ومفتوح به أبواب عِدة، وهو مُحاط برواق مفروش ببلاط أبيض، وفي وسطه صهريج لتخزين المياه، بينما في وسط الضلع الشمالي للصحن ترتفع المئذنة التي تُعد من أقدم المآذن في البلاد، وهي عبارة عن برج على شكل متوازي مُستطيلات يصل ارتفاعه إلى 25 مترًا وعرضه

إلى 7 أمتار، وهذه القلعة بُنيت بين عامي 1007 و 1008م خلال الفترة الحاسمة التي تمخّض عنها قيام الدولة الحمادية فيما بعد عام 1017م، و المئذنة المربعة، حيث توجد فتحات عدة ذات طبيعة دفاعية لرمي السهام، وهناك باحة المسجد في الأسفل وإلى جوارها برج المنار، ثم القصر الذي يحمل الاسم نفسه، وهو الوحيد الذي يظهر فوق الأرض، فيما لم يتم بعد إجراء حفريات لانتشال قصري «البحر» و «السلام» من ركام الأتربة، وفي هذا المكان الذي صُنف عالميًا مُنذ عام 1980م بواسطة مُنظمة اليونسكو ضمن التُراث العالمي، وعثر رجال الآثار على مجموعة من التحف تتشكّل من أعمدة وتيجان وقواعد وشواهد وخزف معماري وتحف من الرخام والحجر والزجاج والمعادن وقطع من النقود والجواهر خلال الفترة منذ بداية القرن العشرين وحتى السبعينيات، غير أن كُل ما عُثر عليه أصبح موجودًا الآن في مُتحف اللوفر بفرنسا إضافة إلى المُتحف الوطني الجزائري للآثار في العاصمة والمُتحف الوطني في ولاية سطيف.

وفي جانب من بقايا قصر المنار، هُناك غُرفة صغيرة للغاية يعتبرها علماء الآثار أصغر مسجد «خُلوة» في العالم الإسلامي، فبه زاوية عليها نقوش وآيات قُرآنية، وإلى جوارها بدا صحن البيت، وفيه صنيات كان العسكر يقفون فيها لحمايته، وبقايا شبكتي المياه والمجاري الصحية التي صُنعتا من الفخار والرصاص قبل عشرة قرون، وهذه المنارة التي تعرضت في ديسمبر عام 1997م لمُحاولة تفجير، وظلت آثار شظايا القنبلة المستخدمة فيها باقية حتى الآن، بهدف منع زيارات الوفود الرسمية لها، كانت تُستعمل في العبادة الدينية والحماية الحربية، وكان أهم ما يُميزها هو نفس ما يُميز البناء في الدولة الحمادية، أي تقويس النوافذ والأبواب واستخدام الحجارة وعرض الحائط في الأسوار يفوق 1.2م.

ومُتحف «المعاضيد» ومركزها الثقافي، وضريح ومسجد مبني على طراز البناء نفسه في الدولة الحمادية وهو لأبي الفضل «يوسف بن محمد أبو الفضل»، والمعروف بالنحوي والذي كان من مشاهير ذلك العصر، وكان يسكن في قلعة بني حماد، ومشهورًا بمعرفة علوم أصول الدين والفقه، وله شعر ديني كثير، غير أنه اشتهر بقصيدته المسمّاة «القصيدة المنفرجة» والتي يقول في مطلعها:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

وحدود تلك الدولة الحمادية امتدت على شكل مثلث قاعدته في ولاية «ورقلة» في الجنوب وحدّه الشرقي «بونة» وخليج سكيكدة، فيما وصل حدّه الشمالي الغربي إلى «سيوسيرات»، وقد ضمت هذه الدولة مجموعة من أشهر المدن الجزائرية ومنها مدينة «الجزائر» العاصمة التي كانت تُسمى قديما «إيكسيوم»، وقد خرجت أثناء هجمات «الوندال» وثورات البربر التي أعاد بناءها واختطها بلكين بن زيري، وسميت في هذا العهد «جزائر بني المزغنة» أو بني مزغنان، وكان من بين المُدن الكبرى التابعة للدولة الحمادية «قسنطينة» و«تاهرت»، عاصمة الرستميين و«بسكرة» و«مليانة» و«بونة» و«عنابة» و«سطيف» و«المسيلة». وتتناثر الآثار الإسلامية في ولاية سطيف التي كان العرب الفاتحون قد أطلقوا عليها هذا الاسم، فإلى جانب أن مرتفعاتها عرفت تأسيس أول دولة فاطمية، وسهولها عاشت أعنف المعارك بين الخلافة الموحدية وبني هلال في نهاية القرن الـ «11» للميلاد، فإن المساجد والزوايا أيضًا تنتشر في ولاية سطيف، فمن مسجد وزاوية عين الفراج إلى مساجد وزوايا بني ورثلان وسيدي أحسن بأولاد بنان وزاوية الحامة وامبزين وتفليت، وإلى جانب سطيف والمسيلة والجزائر العاصمة تتوزع

الآثار الإسلامية في قسنطينة وبجاية وتلمسان وعنابة ووهران ومستغانم، ففي بلد شاسع مثل الجزائر، شهدت ست دول إسلامية كبرى في تاريخها «الرستمية، الزيرية، الحمادية، المرابطية، الموحدية والزيانية».

***

قسنطينة

على ربوة صخرية عالية تقبع «قسنطينة» كأنها جزيرة عائمة وسط بحر من الرمال، تاريخها مُوغل في القدم، بربر وفينيقيون وبيزنطيون وأتراك وفرنسيون، ولكن العرب هم الذين أعطوا المدينة ملامحها الأساسية، وخلال فترة الاحتلال الفرنسي الطويل ظلت قسنطينة قابضة على دينها محافظة على هويتها كالقابض على الجمر.

وتقع مدينة قسنطينة على خط 36.23 شمالًا، وخط 7.35 شرقًا، وتتوسّط إقليم شرق الجزائر، حيث تبعد بمسافة 245 كلم عن الحدود الشرقية الجزائرية التونسية، وحوالي 431 كلم عن الجزائر العاصمة غربًا.

وتتربّع قسنطينة فوق الصّخرة العتيقة على جانبيّ وادي الرّمال، وتحفّها العوائق والانحدارات الشّديدة من كلّ الجهات، وإذا تتبّعنا مظاهر سطح المدينة، نلاحظ أن المنطقة التي تقوم عليها غير مُتجانسة من حيث ارتفاعها عن سطح البحر. كما تُعد قسنطينة اليوم ثالثة مدن الجزائر وتقدر مساحتها بنحو 19 ألف هكتار، ويبلغ تعداد سكانها نحو 700 ألف نسمة، فهي تبعد عن العاصمة شرقا بنحو 433 كيلومترا، وتبعد عن ساحل البحر المتوسط بنحو 85 كيلومترا، وهي بذلك تتوسط إقليم الشرق الجزائري الذي يعد أحد الأقاليم الاقتصادية والعمرانية للجزائر.

وهي واحدة من أجمل المُدن العربية قاطبة، فهي بجبالها ووديانها الخضراء السحيقة وشوارعها الملتوية التي تربطها الجسور المُعلقة، وأشجار الصنوبر المحيطة بها ترسم أجمل لوحة فنية طبيعية قد يُشاهدها الإنسان في حياته، وهي تُعد بوابة شرق الجزائر والمنفذ الرئيسي للصحراء. وقد اتسعت قسنطينة وكبرت بالأعداد الكبيرة التي قدمت إليها بعد استقلال الجزائر من الاحتلال الفرنسي، فقد تضاعف سكانها مما أدى إلى إقامة ضواح سكنية جديدة بلغ عددها عشرًا، ومن أشهر هذه الضواحي ضاحية القنطرة ذات المباني المتعددة الأدوار، ثم ضاحية لامي التي تحيط بها أشجار الصنوبر والتي تضفي على المدينة جمالا باهرًا. وتضفي المدينة القديمة بدروبها الضيقة وخصوصية بناياتها طابعًا مميّزًا. وتجتهد ببيوتها المسقوفة وهندستها المعمارية الإسلامية في الصّمود مُدةً أطول، مُلمّحة إلى حضارةٍ عريقةٍ وطابعٍ معماريٍ يرفض الزّوال.

تُعتبر المدينة القديمة إرثًا معنويًا وجماليًا يُشكّل ذاكرة المدينة بكلّ مكوّناتها الثقافية والاجتماعية والحضارية. فقد عُرفت قسنطينة كغيرها من المُدن والعواصم الإسلامية بالأسواق المتخصّصة. فكلّ سوقٍ خُصّ بتجارةٍ أو حِرفةٍ معيّنةٍ. وما زالت أسواق المدينة تحتفظ بهذه التّسميات مثل: الجزّارين، الحدّادين، سوق الغزل، وغيرها. أمّا الأسواق الخاصة بكلّ حيٍ من أحياء المدينة، فإنّها كانت تُسمّى «السّويقة»، وهي السّوق الصغير.

والمدينة تمتاز بطبوغرافية عجيبة، فهي مبنية على جبل يتكون من سبعة رءوس، وكانت قسنطينة قديمًا لها سبعة أبواب، كما أن بها الآن سبعة جسور معلقة، كما أن كلمة قسنطينة تتألف من سبعة أحرف ومن المعروف أن الرقم سبعة في جميع الحضارات القديمة يرتبط بالسحر والأشياء العجيبة

والخرافات، وهذا الرقم لا يزال حتى الآن لغزًا، نقول السماوات السبع والأرضين السبع والعجائب السبع، والحق أن تاريخ مدينة قسنطينة مرتبط بهذا الرقم اللغز حتى أن الرحالة العرب القدامى كانوا يسمونها المدينة السعيدة. وقد خلدت هذه المدينة وجمالها في أغلب النصوص الأدبية، فمن الجزائريين محمد العيد الذي وصف المدينة وجمالها، كما أن هناك نصًا أدبيًا رائعًا لمفدي زكريا وهو من أكبر شعراء الجزائر، والذي ألف النشيد الوطني الجزائري.

وقد أنجبت قسنطينة مجموعة من الروائيين، منهم: مالك حداد، وقد عاش في هذه المدينة وكان من المعجبين بها وله حس وطني برغم أنه يكتب بالفرنسية، وهناك رواية جميلة للطاهر وطّار مبنية على مدينة قسنطينة وهي رواية (الزلزال). وهذه الرواية تدور أحداثها في قسنطينة والروائي كان يتوقع أن تصاب هذه المدينة بزلزال، والرواية مبنية على سبعة جسور وكل جسر يحمل اسما من أسماء المدينة. أما في العصور القديمة فقد نالت إعجاب الكتاب والأدباء لسحر طبوغرافيتها وجغرافيتها. فمن علماء العصر الحديث المصلح الكبير عبد الحميد بن باديس، وكذلك رضا حوحو الذي عاش في قسنطينة، ثم مالك حداد وأحمد الغوالمي، أما في العصور القديمة فابن قنفذ القسنطيني، وكان في قسنطينة عدد كبير من العلماء والأدباء وهي مدينة من المدن المحافظة، وبرغم أنها تعرضت إلى الكثير من التغييرات، فإنها بقيت محافظة على التقاليد والطابع العربي الإسلامي وتماسك المُجتمع والأسرة.

وفي وسط المدينة تقع معظم المباني الحكومية، فهناك مبنى بلدية قسنطينة ومبنى إدارة الولاية وبعض المباني ذات الطابع الغربي والتي يرجع تاريخ بنائها إلى أيام الاحتلال الفرنسي، بالإضافة إلى الساحات والشوارع المشهورة مثل

ساحة أول نوفمبر التي تقع وسط المدينة، حيث تحيط بها المؤسسات الثقافية والإدارية مثل المسرح الجهوي والبريد المركزي ثم مبنى البنك المركزي، وتتفرع من هذه الساحة عدة شوارع وأنهج. فهناك ساحة الشهداء التي تعد أكبر ساحة بالمدينة اتساعا، وفي هذه الساحة تلتقي الأنهج والشوارع المؤدية إلى أحياء المدينة وضواحيها، ثم ساحة العقيد عميروش التي تروي ذكريات المقاومة الشعبية التي خاضها أهالي قسنطينة ضد المستعمر الفرنسي خلال سنوات الثورة.

ونظرًا لتضاريس المدينة الوعرة وأخدود وادي الرّمال العميق الذي يشقها، أُقيمَت عليها سبعة جسورٍ لتسهيل حركة التنقّل. واشتهرت بعد ذلك قسنطينة باسم مدينة الجسور المعلّقة، و**هذه الجسور هي ما يلي:**

1 ـ جسر باب القنطرة وهو أقدم الجسور بناه الأتراك عام 1792م وهدمه الفرنسيون ليبنوا على أنقاضه الجسر القائم حاليًا وذلك عام 1863م.

2 ـ جسر سيدي راشد ويحمله 27 قوسًا، يبلغ قطر أكبرها 70م، ويُقدّر علوه بـ105م، طوله 447م وعرضه 12م. بدأت حركة المرور به عام 1912م.

3 ـ جسر سيدي مسيد، بناه الفرنسيون عام 1912م ويُسمّى أيضًا بالجسر المُعلّق ويُقدّر ارتفاعه بـ175م وطوله 168م، وهو أعلى جسور المدينة.

4 ـ جسر صلاح سُليمان وهو ممرّ حديديٌّ خُصّص للراجلين فقط، ويبلغ طوله 125م وعرضه مترين ونصف المتر. وهو يربط بين شارع محطّة السّكك الحديدية ووسط المدينة.

5 ـ جسر مجازن الغنم وهو امتدادٌ لشارع رحماني عاشور. ونظرًا لضيقه فهو أحادي الاتجاه.

6 ـ جسر الشيطان وهو جسرٌ صغيرٌ يربط بين ضفّتي وادي الرمال، ويقع في أسفل الأخدود.

7ـ جسر الشّلالات الموجود على الطريق المـؤدّي إلى المسبح. تعلو الجسر مياه وادي الرّمال التي تمرّ تحته مكوّنةً شلاّلات. بُنِيَ عام 1928.

يَطلق الشّعراء على قسنطينة اسم مدينة «الهوى والهواء» وهذا نظرًا لِلَطافَة جوّها ورقّة طباع أهلها وانتشار البساتين والأشجار في كلّ أرجائها. وبذلك تتوفّر للمدينة عدّة حدائق عموميّة تعمل على تلطيف الجو داخلها. ولعلّ أهم هذه الحدائق والتي ما زالت تحافظ على رونقها وجمالها، حديقة بن ناصر أو كما يُطلَق عليها «جنان الأغنياء» وتتوسط شارع باب الواد. وبِحَيّ سيدي مبروك تُوجد حديقتان، إحداهما تقع بالمنطقة العُليا والأخرى تقع بالمنطقة السّفلى. كما توجد حديقةٌ بحيّ المنظر الجميل تحمل اسم «فرفيو عبد الحميد». وتجدر الإشارة إلى أنّ قصر «أحمد باي» يتوفّر على حديقةٍ رائعة الجمال، وتذكر بعض الرّوايات أن الباي نفسه كان يشرف عليها. ومن بين حدائق قسنطينة التي كَتَب عنها بعض المؤرّخين والرحالة «حديقة قسوم محمد» التّي تُدعى «سكورا قامبيطة» الكائنة خلف شارع بلوزداد، التي ما فتئت تستقطب الكثير من النّاس لجمالها وكثافة أشجارها. وتحت جسر باب القنطرة توجد حديقة رائعة الجمال.

الرّحبة هي المكان الواسع الذي يُستعمَل لأغراضٍ تجاريةٍ حيث تُباع مُختلف السّلع والبضائع، كالملابس والأقمشة وغيرها.

ونتيجة لارتفاع عائدات البترول وازدياد الدخل القومي للجزائر منذ منتصف السبعينيات من القرن العشرين قامت الدولة بوضع برنامج طموح تمثل في إدخال الصناعات الثقيلة في البلاد، فكان لقسنطينة من هذا البرنامج نصيب الأسد، ويوجد بها الآن ثلاثة مصانع كبيرة للصناعات الثقيلة تابعة لوزارة الصناعة الثقيلة الجزائرية يأتي في مقدمتها مصنع المجارف والرافعات الذي يقع في عين السمارة بولاية قسنطينة. هذا ويعتبر إنشاء مصنع المجارف والرافعات جاء ضمن إطارات سياسة تنمية وترقية الصناعات الميكانيكية والهيدروليكية في الجزائر، ولتغطية حاجة السوق الوطنية من هذه الرافعات والمجارف ولسد التوسع الكبير لحركة البناء والتشييد التي تشهدها مدن الجزائر، وكذلك للمساهمة في إنجاز مشروع شبكة المجاري الصحية ومجاري الأمطار الجاري تنفيذها في أرجاء البلاد.

بدأ المصنع إنتاجه عام 1981م بعد حصوله على امتياز من شركة «ليبهير» الألمانية التي تقوم بصنع الجارفة والرافعة تحت سقف واحد، ويعد هذا المصنع الوحيد في الجزائر وفي البلاد العربية.

والمصنع يقوم بتصنيع ما يقرب من 65٪ من أجزاء الآلات التي ينتجها أما الباقي فيستورد مثل بعض الأجهزة الميكانيكية والأجهزة الكهربائية وبعض الأجهزة الدقيقة، كما يقوم الآن بتصدير بعض الإنتاج إلى بعض دول أوربا الجنوبية مثل أسبانيا واليونان وإيطاليا إضافة إلى بلاد المغرب العربي. و مساحة المصنع المغطى 11 هكتارًا، أما المساحة المفتوحة فتبلغ نحو 55 هكتارًا.

والمصنع يُنتج الآن أربعة أنواع من الرافعات وهي روافع بحمولة 12 طنًا، و30 طنا، و25 طنا، و40 طنا بالإضافة إلى خمسة أنواع من المجارف، ثلاثة أنواع منها مجنزرة ونوعان آخران على عجلات.

ومن المصانع التي تنفرد بها الجزائر عن باقي الدول العربية وتحتضنها ولاية قسنطينة مصنع المعدات الصناعية، وهذا المصنع ينتج المخارط والفرازات والمقشطات والثاقبات وعجلات الشحذ والمناشير الميكانيكية، وقد بدأ المصنع في إنتاج هذه الآلات الدقيقة عام 1976. إن هذه الآلات الدقيقة التي يقوم المصنع بإنتاجها تنطبق مع المقاييس المعمول بها دوليًا.

وتعد قسنطينة أحد حصون الإسلام المنيعة فمنذ أن دخلها الإسلام، فهي مركز مهم لهذا الدين الذي أضاء بنوره غياهب الظلام وأصبح الناس إخوة متحابين في الله، لقد بقيت قسنطينة نبعًا فياضًا للغة القرآن، فقد ازدهرت اللغة العربية في هذه المدينة برغم أن المستعمر الفرنسي حاول بشتى الطرق محوها.

وازدهرت اللغة العربية بفضل الكتاتيب والمدارس الدينية التي أنشأتها طائفة من علماء هذه المدينة وعلى رأسهم المجاهد والمصلح الديني الكبير الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي أقام مجموعة من المدارس الدينية لتعليم اللغة العربية والدين لأبناء المدينة، ولقد صمدت قسنطينة أمام الحوادث الجسام التي أصابتها وبخاصة عندما احتلها الفرنسيون في مايو عام 1848م. ويقول المؤرخان الجزائريان الدكتور عبد العزيز فيلالي ومحمد الهادي لعروق وهما أستاذان لمادة التاريخ في جامعة قسنطينة في كتابهما «مدينة قسنطينة.. دراسة التطور التاريخي والبيئة الطبيعية»:

ـ لقد قام المُستعمر الفرنسي بطرد الجزائريين من بيوتهم وأملاكهم وحلوا محلهم. واستخدموا معهم سياسة التجويع والجهل فأغلقوا المساجد

والمدارس العربية وحولوها إلى كنائس ومدارس فرنسية، كما ضيقوا على العلماء والفقهاء حتى فر الكثير منهم ناجيًا بجلده وإيمانه، وبرغم هذه السياسة الشديدة فقد ظل الشعب الجزائري يحمل لواء المُعارضة ضد الاستعمار. ولقد قامت نحو أربع وعشرون ثورة وانتفاضة شعبية في الجزائر في فترة لا تزيد على ستين عام، وحاول الفرنسيون تجريد الشعب الجزائري من شخصيته العربية والإسلامية وذلك بالسماح للفرنسيين والإيطاليين والأسبان بالإقامة الدائمة في قسنطينة، إلا أنهم لم ينجحوا في تحويل أفكار الجزائريين عن قيمهم الروحية، بل ظلوا يتغذون من العروبة والإسلام ويستمدون منهما قوتهم ونضالهم وصمودهم.

وقد جاءت هذه النهضة على مرحلتين، بدأت المرحلة الأولى في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وتمثلت في الوسائل التقليدية القديمة في الدرس والتحصيل في الكتاتيب والزوايا لتعلم أصول الدين واللغة العربية، وقد أصبح هذا التعليم ـ برغم بساطته ـ سلاحًا مُقاومًا يُمثل الاتجاه الوطني ضد الغزو الثقافي الفرنسي، كما أن تيارات الإصلاح التي عرفتها بلاد المشرق كانت تصل إلى أهل قسنطينة وشيوخها بطرق عدة، فتأثروا بهذه النهضة ونقلوها إلى تلامذتهم في الحواضر الكبرى للجزائر، وفي هذه الفترة ظهرت في قسنطينة شخصية عبد القادر المجاوي 1848 ـ 1913 الذي يعود إليه الفضل في إيقاظ روح الإصلاح ونشر اللغة العربية وإحياء التراث الإسلامي وكانت أفكار الشيخ المجاوي اللبنة الأولى للنهضة الإصلاحية في الجزائر وفي قسنطينة بخاصة، وقد خلف هذا المصلح عددًا كبيرًا من التلاميذ ساروا على دربه واتخذوا منهجه منارًا يهتدون به في جهادهم الوطني أمثال الشيخ حمدان بن لونيس وأحمد مرزوق الحبيباتي والشيخ المولود بن الموهوب والشيخ أحمد البرعوني وغيرهم الكثير.

ثم جاءت المرحلة الثانية لهذه النهضة الإصلاحية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين بزعامة ابن قسنطينة الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس وبمعاضدة رفاقه وإخوانه في الجهاد من علماء عصره أمثال الشيخ البشير الإبراهيمي والطيب العقبي والعربي التبسي ومبارك الميلي الذين غذوا حركة الإصلاح بأفكارهم ومبادئهم، حيث كان لهذه الحركة الإصلاحية برنامج مرسوم وخطة مدروسة، وأهداف محددة، منها تصفية الدين من الخرافات، وبعث التعليم العربي الإسلامي وإحياء التراث بنشر الحضارة العربية الإسلامية، وإيجاد جيل يؤمن بهذه المبادئ والقيم الوطنية لمكافحة الاستعمار والجهاد في سبيل الله والوطن، فقد قام الشيخ عبد الحميد بن باديس بتأسيس جمعية الإصلاح في عام 1931 حيث كرس حياته للإصلاح مع رفاق صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقد سارت الجمعية منذ تأسيسها بخطى ثابتة وأيدتها جماهير قسنطينة والتفت حولها وآمنت بأفكارها، فأيقظت الشعور بالأصالة وحررت العقول من الأفكار البالية متحدية بذلك الإدارة الفرنسية التي كانت تعمل بشتى الطرق للقضاء على نشاط هذه الجمعية، فقد استطاعت الجمعية في فترة وجيزة أن تفتح ما يزيد على 400 مدرسة ومعهد في مختلف أنحاء الجزائر في المرحلة ما بين عام 1931م حتى اندلاع الثورة الجزائرية عام 1954م، وكان للجمعية ومدارسها الفضل في نشر الثقافة العربية الإسلامية والوعي القومي والفكر الديني والتعبئة الجماهيرية المناهضة للاستعمار، مما أدى إلى قيام الثورة الجزائرية ومن ثم استقلال الجزائر.

وقد سارت مبادئ جمعية عبد الحميد بن باديس جنبا إلى جنب مع مختلف التشكيلات السياسية للحركة الوطنية، فكان التعليم العربي الإسلامي هو الدرع الواقي للحفاظ على الشخصية القومية للجماعة، كما كانت اللبنة

الأولى ليقظة الشعب ووعيه، ولقد بذلت جمعية ابن باديس جهودًا حثيثة لنشر التعليم الإسلامي العربي في مُختلف أرجاء الجزائر بعد أن كان مركزًا في مدينة قسنطينة على عهد الشيخ ابن باديس، فقد أصدرت قسنطينة مُنذ العقد الثاني من القرن العشرين ما يزيد على 15 عنوانًا لدوريات ومجلات عربية مُختلفة، وهو عدد كبير إذا عرفنا أن الإدارة الفرنسية كانت قد وضعت قيودًا ورقابة صارمة على الصحف التي تصدر باللغة العربية، وبخاصة تلك التي تصدر من مؤسسات وجمعيات وطنية، كما يدل هذا العدد من المجلات والدوريات على انتشار الوعي وقيام نهضة وحركة ثقافية ناشطة بين شباب قسنطينة، هذه المدينة التي لعبت دورًا مُهما في تغذية الحركة الوطنية في مختلف اتجاهاتها ودروبها، وكانت من طليعة المُدن الجزائرية التي خاضت غمار الإصلاح، ومدت الحركة الوطنية والثورة بالمُجاهدين الأبطال.

وتعد جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية واحدة من الصروح الثقافية الإسلامية في ولاية قسنطينة، فقد جاءت فكرة إنشاء هذه الجامعة مع إنشاء مشروع مسجد الأمير عبد القادر الضخم عام 1984 في مدينة قسنطينة، وقد ساهم نخبة من علماء وأساتذة العالم العربي في وضع الأسس العلمية والمنهجية الإسلامية للدراسة في الجامعة منهم المرحوم الشيخ محمد الغزالي، والدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور سعيد رمضان البوطي وغيرهم من العلماء الذين يزخر بهم عالمنا العربي والإسلامي، وجامعة الأمير عبد القادر تتكون من ثلاثة معاهد، وهذه المعاهد هي معهد الدعوة وأصول الدين وهو من أكبر المعاهد التي تضمها جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، ويضم ثلاثة أقسام متخصصة هي قسم الدعوة والإعلام وقسم العقيدة ومقارنة الأديان وقسم الكتاب والعام، ويعد هذا

المعهد من أهم معاهد الجامعة لأن التخصصات التي يدرسها تكاد تشمل علوم الشريعة كلها مضافًا إليها بعض علوم العصر الحديث التي لا غنى لطالب العلم عنها.

والمعهد الثاني في الجامعة هو معهد الشريعة ويضم قسمين هُما قسم الفقه وأصوله وقسم الشريعة والقانون. أما المعهد الثالث فهو معهد الحضارة الإسلامية، والدراسة بهذه الجامعة مُختلطة، وعدد الطالبات يفوق عدد الطلبة بصورة ملحوظة، وتخرجي الدُفعة الأولى لخريجي هذه الجامعة عام 1988م، وتوالت أعداد الخريجين.

وتُعتبر جامعة الأمير عبد القادر جامعة وطنية ذات بُعد إفريقي، والدولة عندما أقامت هذه الجامعة كان هدفها أن تكون مركز إشعاعًا إسلاميًا، وإفريقيًا، يقف في مواجهة الحملات التبشيرية الأوربية والأمريكية التي تغزو إفريقيا، وقد نجحت والحمد لله في سعيها هذا، ولديها الآن مجموعة من الطلبة الإفريقيين الذين يدرسون في جامعة الأمير عبد القادر وهم طلبة من تشاد ومن ساحل العاج وأوغندا وغيرها من الدول الإفريقية، حتى أن بعض خريجي هذه الجامعة يحتلون مناصب قيادية في بلادهم وكذلك في كثير من دول العالم.

والدراسة في الجامعة بالمجان ويحصل طلبة المنح على مُخصصات مالية شهرية، وفي السنوات الأخيرة فتحت الجامعة أقسامًا للدراسات العُليا في جميع تخصصات المعاهد الثلاثة التي تتألف منها أقسام الجامعة التي تقوم أيضًا بطبع الرسائل الجامعية المُجازة، وتُقدم حوافز مالية لأصحابها.

عُرفت قسنطينة قديمًا عدّة رحبات منها ما يزال قائمًا حتّى اليوم ومنها ما تحوّل إلى مبانٍ وطرقاتٍ كرحبة الزّرع التي كانت تتوسّط المدينة وتُقام

فيها نشاطاتٌ تجاريةٌ كبيع الحبوب، التمور والزّيوت. ومن الرّحبات المعروفة في قسنطينة قديمًا، نذكر «رحبة الشّبرلييّن»، «سوق الخرازين»، «سوق العطّارين»، «سوق الصّاغة»، و«سوق الصّباغين» وغيرها... وحاليًا ما تزال بعض الرّحبات موجودة مثل «رحبة الصّوف» التي تحوّلت اليوم إلى سوقٍ لبيع الخضر والفواكه والأواني وبعض الأغراض المنزلية. أمّا «رحبة الجمال» التي يذكر المؤرخون أنّها كانت مبركًا للقوافل الآتية من مختلف الأنحاء مُحمّلةً بالبضائع، فقد أصبحت اليوم سوقًا لبيع الملابس ومكانًا مُفضّلًا للمطاعم الشعبية الشّهية بوجباتها. وهناك «سوق العصر» الذي كان قبلًا يُسمّى «سوق الجمعة» ويشتهر بتنوّع خضره وفواكهه وباللّحوم والأقمشة، وعادةً ما تكون أسعار هذا السّوق مُعتدلة مُقارنةً ببقيّة الأسواق.

وتعد مباني وتجهيزات جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية تحفة فنية نادرة، فقد بنيت هذه الجامعة ومرافقها على النمط الإسلامي المغربي، فالنقوش وأعمال الخشب الزخرفية جاءت وفق نظام هندسي إسلامي حديث، روعيت فيه كل متطلبات الحياة الحديثة من صالات وممرات ومدرجات وغرف، ويأتي المسجد الجامع الملحق بمباني الجامعة كتحفة إسلامية نادرة. ولقد جاءت هندسة جامعة الأمير عبد القادر إحدى ثمرات التعاون بين المهندسين المصريين وإخوانهم الجزائريين بالإضافة إلى مجموعة من الفنيين المغاربة الذين شاركونا في تنفيذ زخارف ونقوش المصلى الكبير للجامع، والذي يسمى بالزلاج، ويعد جامع الأمير عبد القادر الجامع الرئيسي والرسمي لمدينة قسنطينة حيث تقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة من كل أسبوع، كما تقام فيه صلاة التراويح والقيام وصلاة العيدين ويقوم التلفزيون الجزائري في كل شهر بنقل وقائع صلاة الجمعة من هذا

الجامع. لقد ساهم العمال والمهندسون الجزائريون بالنصيب الأوفر في بناء هذا الجامع، فقد قاموا بإنجاز أعمال الخرسانة المسلحة والمباني والخشب والحديد، أما الأعمال الهندسية فقد قام بها مكتب الدراسات المختلط وهو مكتب جزائري مصري قام بإعداد الدراسات ووضع الخرائط الهندسية.

وتبلغ مساحة المسجد نحو 9 هكتارات ويتسع لنحو 15 ألف مصلي، وهناك أروقة وصالات للمسجد مخصصة لطلبة وطالبات جامعة الأمير عبد القادر تتسع لنحو ثلاثة آلاف مصلي.

وقد قام بتصميم مباني المسجد المهندس المصري المرحوم مصطفى موسى الذي يعد واحدا من أقدر المهندسين العرب في بناء التصاميم الهندسية المعمارية الإسلامية الحديثة، ولقد استغرق بناء المسجد مدة طويلة تقدر بحوالي 23 عام، أما المواد الخام التي استخدمت في البناء فأغلبها مواد خام من الجزائر، فالرخام المستخدم في البناء والواجهات رخام جزائري، وكذلك الخشب المستخدم للأبواب والشبابيك والقواطع، أما الثريات والأضواء الكهربائية فبعضها مستورد من المغرب، والكريستال والزجاج الملون من بلاد التشيك. وفي منتصف الصالة الرئيسية أو المصلى تقع القبة الرئيسية التي يبلغ ارتفاعها نحو 65 مترًا، وسوف تزدان بثريات وأضواء تتناسب مع فخامة هذا الجامع.

وإذا كانت جامعة الأمير عبد القادر أنشئت لتلبي احتياجات الجزائر من الكوادر الإسلامية، فإن جامعة قسنطينة تعد هي الأخرى إحدى القنوات الثقافية والعلمية التي تفخر بها مدينة قسنطينة إن عمرها الزمني الآن قد تجاوز ربع القرن، فقد بدأت الدراسة بها عام 1969م بداية متواضعة حيث كانت تابعة لجامعة الجزائر العاصمة تدرس بعض التخصصات المحدودة مثل الآداب والحقوق والطب، ومنذ عام 1969 عرفت جامعة قسنطينة

توسعًا في شتى الميادين، كما تعددت بها التخصصات العلمية نتيجة للإقبال المتزايد والمتنامي للطلبة الذين أصبح عددهم يرتفع عام بعد عام.

ومع هذا التطور الكمي تطورت هيئة التدريس والهياكل والموظفون والمقاعد التربوية والوسائل التعليمية، كما تم الاهتمام بسياسة التعليم من خلال مراجعة البرامج والمناهج وتطوير الدراسات العليا وتنويعها والاهتمام بالبحث العلمي وتدعيمه، خاصة وإن أعداد طلبة جامعة قسنطينة لهذا العام قد تجاوز ال 20 ألف طالب وطالبة، والدراسات في جميع كليات ومعاهد الجامعة مختلطة، أما الهيئة التدريسية التي تقوم بإلقاء المحاضرات والتدريس فتبلغ نحو 1500 أستاذ وكلهم من الجنسية الجزائرية.

إن الناظر إلى مباني الجامعة من علٍ يرى أنها صممت بطريقة هندسية فريدة، إنها أشبه ما تكون بكتاب مفتوحٍ، ثم حوض من الماء على شكل محبرة، ثم مسلة أو عمود على شكل قلم، أما المبنى الذي يشبه الكتاب المفتوح فهو قاعة محاضرات كبرى باسم المرحوم محمد بن الصديق بن يحيى وزير خارجية الجزائر الأسبق والذي توفي في حادث سقوط طائرته بين الحدود العراقية ـ الإيرانية أثناء قيامه بالوساطة لإنهاء الحرب بين البلدين عام 1982، وهذه القاعة مخصصة للمحاضرات العامة والملتقيات الثقافية، إذ يحاضر بها الأساتذة الزائرون في شتى فروع المعرفة.

تنقسم جامعة قسنطينة إلى ثلاثة معاهد كبيرة هي: معاهد العلوم الإنسانية والاجتماعية وتضم تسعة معاهد، ثم معاهد العلوم، وتنقسم إلى سبعة معاهد، ثم معاهد العلوم التطبيقية والتكنولوجية وتنقسم إلى ثمانية معاهد، وبالتالي فإن مجموع معاهد جامعة قسنطينة عين الباي تبلغ 24 معهدا. ولقد أولت وزارة الجامعات أو كما تسمى في المشرق وزارة التعليم

العالي اهتمامًا كبيرًا بإدارة الجامعة وعصريتها بإدخال وسائل التسيير الحديثة والأنظمة الإعلامية، كما قامت بتجديد المختبرات والأجهزة العلمية بأحدث ما أنتجه العالم من تقنيات حديثة. إن جامعة قسنطينة تقوم الآن بالتعاون مع وزارة الجامعات بوضع مخطط لتطوير الجامعة لتشمل المعاهد العلمية والتكنولوجية بالإضافة إلى الوسائل المشتركة كالنقل والطبع والنشر، ثم الأجهزة السمعية والبصرية.

تُعد مكتبة جامعة قسنطينة المركزية من أحدث المكتبات الجامعية، فهي تقدم خدماتها لجميع التخصصات الموجودة بالجامعة إذ تبلغ معاهد الجامعة نحو 23 معهدًا. وكل معهد لديه قسم خاص بهذه المكتبة، تقوم إدارة المكتبة التي تقع وسط مباني جامعة قسنطينة بتزويد مكتبات المعاهد بما تحتاج إليه من كتب ودوريات، وتتكون من طابقين رئيسيين، الطابق الأرضي عبارة عن قاعة فسيحة للمطالعة بالإضافة إلى قاعة الخدمات المكتبية أو المراجع والرسائل الجامعية، أما الملحق فهو مبنى متخصص للمصورات الفيلمية والميكروفيلم ثم أجهزة الفيديو والتقنيات الحديثة، وهو في طور التجهيز. أما الطابق السفلي أو البدروم فيضم المخازن وبهو الفهارس والأقسام الداخلية التي تتألف من قسم الدوريات وقسم الاقتناء ومصلحة المعالجة. وتقدم مكتبة جامعة قسنطينة خدماتها إلى نحو 30 ألف طالب وقارئ وأستاذ وباحث، بالإضافة إلى طلبة الإقليم الشرقي للجزائر حيث يتوجهون إلى مكتبة جامعة قسنطينة نظرا لكثرة مراجعها وتنوعها وسعتها، والمكتبة بها نحو 800 ألف عنوان ولديها 28 ألف كتاب، ومن الدوريات 1200 عنوان، أما عن الطريقة التي تتزود بها بالكتب والمراجع، فإنها تتعامل مع ممولين عرب وأجانب يقومون بتزويدها بما تصدره المطابع من كتب، وفي هذا العام تم إنشاء مجلس التوثيق الجامعي، وهذا المجلس يضم مكتبيين

وأساتذة وباحثين، وهو يقوم الآن بوضع خطة للتوثيق. وقد تمكنت المكتبة الجامعية في السنتين الماضيتين من تدعيم معهد دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية بعدد كبير من الوثائق الجديدة وبخاصة اللغة العربية. كما أن لها علاقة جيدة مع كل الجامعات العربية وبخاصة جامعة الكويت ومكتب الدراسات العربية وتتبادل معهما الكتب والرسائل الجامعية.

***

مدينة الدّار البيضاء

أكبر مُدن المغرب، ويُدلّلونها فيُسميها المغاربة بكازا، كما يحلو لزوّارها من خارج المغرب إطلاق نفس الاسم عليها.

و«كازا» هي إحدى عرائس المُحيط الأطلسي، وتبعد عن أوروبّا أقل من ساعتين. وتُعتبر في الوقت نفسه بوابة الشّمال أيضًا. فهي العاصمة التّجارية للمملكة المغربية حيث تضمّ المدينة حوالي 60 ٪ من الشّركات العاملة هناك. إنّها الدار البيضاء، هذه المدينة المغربيّة الشّهيرة والتي لها موقع خاص في قلب كُل مَن زارها، علمًا بأنّها تحتلّ كذلك تلك المكانة الخاصّة في قلوب أبناء المغرب أنفسهم.

تقع الدار البيضاء، المعروفة في جميع أنحاء العالم باسم «كـازابـلانكـا»، على سواحل شمال إفريقيا المُطلّة على المُحيط الأطلسي. وهي تُعدّ أكبر

مُدن المغرب بلا مُنازع، وتحفل المدينة بالكثير من فرص الترفيه والرّياضة والاستجمام والتّسوق والتجوال وتناول أشهى الأطعمة.

على الرّغم من أنّ العربية هي اللّغة الرّسمية، إلاّ أنّ الجميع وفي كل مكانٍ تقريبًا، يتحدّثون الفرنسية أيضًا، بينما يتحدّث العاملون في الفنادق والمتاجر والشّركات اللّغات الإنجليزية والأسبانية أيضًا.

الدار البيضاء قد تبدو نقطة ليست دالة بوضوح على النموذج المغربي، ولكن هذا للوهلة الأولى فقط، إنها مدينة كبيرة وغضة في أن تنامت مائة مرة أكثر من حجمها الذي بدأت به عام 1900م، وتكاثر سكانها من عشرين ألفا إلى أكثر من ثلاثة ملايين، وتُوحي للوهلة الأولى بنمط حاضرة عصري من حواضر البحر المتوسط. ومدينة «تجارة عالمية» بطرقها الواسعة، وأبراجها السكنية، وفنادقها الفاخرة، وأحيائها الشعبية عند الأطراف. وبقليل من التوغل في قلب الدار البيضاء سواء باتجاه المحيط أو العكس، يكشف عن بعض من خصوصية ألوان المغرب وعطورها ورفيف الروح فيها، ولعل مسجد الحسن الثاني الكبير الأعجوبة الإسلامية العصرية المطلة على مياه الأطلسي، ولعله يكون بداية لمشهد مغربي ذي خصوصية وانفراد. وأرى أنه أبعد من زمن افتتاحه بكثير، صحيح أنه افتتح في أغسطس 1993 بعد ست سنوات من التشييد، واستهلك 50 مليون ساعة عمل، وجهود 25000 فنان (ولا أقول عاملًا)، لكن هذا «القلب الرمزي» كما وصفه أحد الكتاب الغربيين فأحسن الوصف يكتنز في رحابه وبين حناياه لمحات معتقة من روح المغربي الفنان المُؤمن، والمنفتح. كما أن الصروح العملاقة البديعة من هذا النوع هي حالة من تجلي اللحظة التاريخية حتى لو كان مولد فكرتها في عقل ملك.

ولعل البُرهان على ذلك ما تُشاهده في كثير من البيوت والمحال والحوانيت من احتفاء فخور بامتلاك إيصال للتبرع مُشاركة في بناء هذا المسجد الشامخ. فالإيصال تراه كثيرًا داخل إطار مُعلق على الحائط بشكل يوحي بالزهو والتشريف، إنه قلب رمزي حقًا، ومَن ينظر مِن مكان مرتفع في نهاية الدار البيضاء فسوف يرى كيف أن هذا الصرح منفرد قد طبع المدينة كُلها بطابعه. وقد يبدو المشهد الرحيب وكأن الدار البيضاء وهي بيضاء حقًا سفينة عريضة تشق زرقة المحيط الأطلسي اللامُتناهية الأفق بمقدمها الرصين المطمئن الذي تشكله بناية مسجد الحسن الثاني الشهباء المُتميزة، والمُكللة بالقرميد الأخضر، فيما المئذنة الشاهقة الموشاة بفيروزية الزخارف تعلو في السماء كأنه صار من صواري الروح المسلم ينشر شراعًا شفيفًا يمتلئ بهواء المُحيط العفي الذي لا يبين، لتثبت السفينة في مرساها المغربي وتتكسر عند أقدامها أمواج المحيط إن عنفت أو طغت. فكأن هذا الصرح رمز لمسعى التوازن المغربي على مستوى الشكل ينم عن حرص على هذا المسعى في الجوهر.

وقُرب الميناء بالمدينة القديمة التي تتهيأ للتبدل حتى يمر الطريق الكبير الجديد إلى مسجد الحسن الثاني، فتتذكر أن البرتغاليين أقاموا في هذا المكان لأول مرة منذ خمسة قرون، وكعادتهم التي جعلت البعض يسميهم «براغيث البحر» لم يمكثوا في المكان، لكنهم عادوا إليه بعد قرن وأسموه «كازابلانكا»، أي « البيت الأبيض» أو الدار البيضاء، وكان مقامهم ينهض على مرتفع يشرف على خليج صغير دمره زلزال لشبونه عام 1755م. ثُم عاد بعد ذلك التُجار المغاربة.

الزمن المغربي يتجلى أكثر ما يتجلى في الدار البيضاء بمنطقة «الحبوس». وهي نموذج مصغر لمدينة مراكشية شكلًا وموضوعًا، وقد بدأ تبلورها في الثلاثينيات

كمقام لأبناء البلد في زمن عزَّت فيه البيوت وقت الهيمنة الاستعمارية الفرنسية. والآن تبدو الحبوس قطعة فنية معتقة من ذلك الزمن الحي والحيوي. حوانيت بائعي الجلايات، والطرابيش، والعبايات المغربية على أنواعها، والخشبيات، والنحاسيات، والزيتون الذي يستقل بسوق خاص تحتشد فيه عشرات الأنواع التي يصعب على غير المغربي المخضرم أن يُميز بينها.

وتتجلي الحديقة المورقة وسط الميدان الصغير الجميل، والأبنية الخفيضة المُتكاتفة في تلاحم الأزقة، والحمامات، وأبواب المدينة، وبناية المحكمة الشرعية بسقوفها القرميدية، وأبراجها العديدة، ثُم امتداد الدروب حتى حارة النخيل الباسق، وبوابة القصر الملكي.

تحفل مدينة «الدار البيضاء» العاصمة الاقتصادية للمغرب، بالحركة والحيوية والحدائق العامة والنّوافير الجميلة والمباني التقليدية والحديثة، وهي مدينةٌ بديعة تجتمع فيها الثّقافة والتاريخ والهندسة المعمارية ضمن أسلوبٍ فريدٍ. ويُهيمن على المدينة مسجد الحسن الثاني، بينما يتميّز حيّ الحبوس في المدينة القديمة بساحاته المُظلّلة وأزقّته الضيقة وأسواقه الشّعبية التي تعرض الهدايا التذكارية والمُنتجات الحرفية عالية الجودة.

تقع البلدة العربية القديمة في المنطقة الداخلية مُقابلة الميناء، وهي عبارة عن متاهةٍ من الأزقّة الضيقة والمنازل المصبوغة باللّون الأبيض. وتُعتبر فردوسًا للباحثين عن المُنتجات الفنّية والحرفية المغربية الأصيلة.

وأروع ما يُمكن زيارته هي شواطئ الدار البيضاء الجميلة، حيث يُمكن التّوجه إلى الشرق من مركز المدينة حيث الكورنيش، وهي منطقة راقية تنتشر فيها الفنادق والمطاعم الفخمة، ويستطيع الذّواقة الاستمتاع في هذه المنطقة بأشهى الأطعمة التي تمتزج فيها فنون الطهي المغربية والفرنسية.

أهمّ ما يُميّز مدنية كازابلانكا عن بقيّة المدن الأخرى أنّها لا تتمتّع بخليج طبيعي يصلح لإقامة بناء، ولهذا السّبب تمّ بناء كاسر أمواج بطول ثلاثة كيلومترات لإقامة بناء «مولاي يوسف» الذي يُعدّ أكبر ميناء في المغرب، والرّابع على مستوى قارّة إفريقيا. وهُناك كذلك المدينة القديمة، وهي المدينة العربيّة الأصيلة التي تقع داخل سورٍ قديم، وتضمّ طُرقاتٍ ضيّقةٍ وبيوتًا من الفخّار الأبيض أو الحجر ومحلّات كثيرة وبضائع متنوعة. وفي الجانب الآخر ستجد ميناء الدار البيضاء، وهو الأكثر حركة في القارة الإفريقية، ويعجّ بكلّ أنواع السّفن، من ناقلات النّفط والسّفن السياحية. وتكثر عند الميناء أيضًا مراكب صيد السّمك والمراكب الخاصة.

بالإضافة إلى ميدان محمّد الخامس، وهو عبارة عن ساحةٍ في قلب المدينة، تُزيِّن الدّار البيضاء مبانٍ على الطّراز المعماري الفرنسي وتضمّ مكاتب حكوميةً وعامةً وتتوسّطها نافورة ماء تنثر المياه الملونة في كل صوبٍ على أنغام موسيقى ساحرة ووسط أسراب من الحمام الأبيض.

أمّا المدينة الجديدة فتقع في جنوب الدار البيضاء وتعرَف باسم «حيّ الحبوس» أو «منطقة القدّيسين». وقد بناها الفرنسيون في محاولةٍ لحلّ مشاكل السّكن في الثّلاثينات. ومع اختلاط الهندسة المغربية التقليديّة بالتخطيط الحديث، ازدادت المدينة جمالًا بازدياد الأشكال والألوان والأنوار.

ومدن السواحل لا تنتمي إلا إلى البحر العميق الذي يلطم شواطئها ويوصلها مع غيرها من المدن الشبيهة، إنها مدن الغرباء والعابرين الذين تعودوا أن يأخذوا جزءًا من ثقافة كل مدينة يهبطون إليها، ويتركون جزءًا من أرواحهم القلقة التي لا تعرف الاستقرار، لذا فإن الدار البيضاء تنتمي إلى الإسكندرية وبيروت ومرسيليا وغيرها من الموانئ أكثر ما تنتمي إلى

فاس ومراكش، ويبدو أحيانًا أن إطلاق الاسم الأجنبي عليها (كازابلانكا) هو الأليق بها، فهي خالية من الأسوار التي تحيط بها مثل العديد من المدن المغربية، وخالية من آثار الحصون وبقايا معارك القرون الوسطي وأبهة السلاطين والولاة، إنها تحمل كل معالم التاريخ المعاصر، وخاصة ملامح ذلك الصراع الذي لم يهدأ بين المغرب وجيرانه الأوربيين الذين يواجهونه على الساحل الآخر من القارة، ولا تعاني المدينة فقط من هذه الازدواجية في الاسم، ولكن كل وجوه الحياة في الدار البيضاء هي مزدوجة بصورة أو بأخرى، فالشوارع تحمل أكثر من اسم، أسماء فرنسية لم تحل بدلًا منها أسماء عربية، ولكن تجاورت وتعايشت معها، كذلك تداخلت اللغات، ولذلك فاللهجة العامية أو المحكية المغربية واحدة من أصعب اللهجات العربية لأن الكثير من مُفرداتها مُستمد من الفرنسية بعد أن جرت (مغربتها)، وإذا تتبعت عدة حوارات طويلة منها فلن تفهم منها شيئًا، كذلك تختلط الثياب، ما بين الثياب الأوربية التي تتبع آخر الموضات والتنانير القصيرة جدًا للنساء والثياب التقليدية التي تتكون من (الجلابية) والمركوب المغربي الشهير.

فهي تنتمي للمغرب وللعالم في نفس الوقت، فهي أحدث مدن المغرب وقلبها التجاري وأكثرها ازدحامًا بالسكان (حوالي 10 ملايين نسمة) وتمر بها 70 ٪ من تجارة المغرب الخارجية، يساهم في ذلك قربها من المناطق الزراعية ومناجم الفوسفات الكبرى في (خريبكة)، كما أنها تحتوي على المراكز الصناعية المُهمة مثل صناعة تجميع السيارات وتكرير السكر والنسيج وتعليب الأسماك والأسمنت والمواد الكيماوية والعديد من الصناعات، وهي أيضا المركز المصرفي، وملتقى كل طرق المواصلات والسكك الحديدية، وبها ثلاث مؤسسات للبحث العلمي وجامعة الحسن الثاني والمكتبة الحسنية

للحرف العامة والكلية الوطنية للموسيقى، أي أن فيها الشيء الذي لا يستهان به من جماع الروح المغربية.

الشوارع الواسعة تحتضن العمائر البيضاء التي تعود في معمارها إلى الثلاثينيات من القرن العشرين، فهي خليط مُدهش من العمارة الفرنسية والمغربية، ولكن الأكثر دهشة هو أهل المدينة بطبيعة الحال في ذلك الإقبال والافتتان بمدينتهم، بذلك الاختلاط الهائل بين الرجال والنساء، فإنهم من أكثر سكان المدن العربية عشقًا للحياة، والسهر على حافة المُحيط يمتد إلى ساعات مُتأخرة من الليل.

إنَّ التاريخ يعود بعُمر المدينة إلى عصور أقدم من ذلك بكثير من تلك الصورة المُعاصرة، فالاستقرار في هذه المنطقة قد بدأ قبل الفتح الإسلامي، وخاصة في (الأنفا) التي كانت عاصمة لحُكم البربر وخاصة قبيلة (البرجواتة) وموقع هذه المدينة الآن هو أحد الأحياء الراقية، وقد فشل المرابطون في ضمها إلى دائرة مُلكهم وظلت مُحافظة على استقلالها حتى استولى عليها الموحدون لفترات قصيرة، ورغم ذلك فالمنطقة ظلت مُحافظة على نوع من الاستقلالية الذاتية حتى أنها أقامت علاقات تجارية مباشرة مع كُلٍ من إنجلترا والبُرتغال.

في مُنتصف القرن الخامس عشر أصبح الصراع ضاريا بين بحارة (الأنفا) والأسطول البرتغالي الذي كان يسعى للاستيلاء على ذهب إفريقيا، وقد قام أسطول بُرتغالي مكون من 50 سفينة ويحمل 10 آلاف جندي بالإبحار من (لشبونة) إلى الساحل المغربي وسلط مدافعه على (الأنفا) ولم يتركها إلا خرابًا، وقد ظل الأسطول البُرتغالي لها بالمرصاد، ما إن تنهض وتستعيد قدراتها التجارية والعسكرية حتى يعاود الهجوم عليها، وفي النهاية عام

1575م وصل الأسطول البُرتغالي ليبقى ويُقيم تحصيناته التي منها مدينة (كازابلانكا) فلقد بقي البُرتغاليون بها حتى عام 1575م ولم يتركوها حتى حطمها زلزال مُدمر، وهو نفس الزلزال الذي حطم مدينة لشبونة، فأمر السلطان محمد بن عبد الله بإعادة بنائها وتحصينها.

في هذا الوقت بدأت أوربا نهضتها الصناعية وازدادت شراهتها للمواد الخام وللأسواق، وكانت (كازا) هي موطئ قدمها إلى إفريقيا وبدأت تفتح وكالاتها وقنصلياتها في مُواجهة السلاطين الضعاف الذين لم يستطيعوا فرض سيطرتهم على البلاد وحمايتها من التدخل الأجنبي، ففرض القناصلة الأوربيون سلطانهم وتلاعبوا بالسلطان وأعوانه مما أثار حنق المغاربة ودفعهم إلى التمرد والثورة، وقد تطور الأمر إلى حده المأساوي عندما ثارت مُشاجرة بين بعض العُمال الأوربيين والسكان المحليين، وقد بدا الأمر عندما كان هؤلاء العُمال يمدون خطاً للسكة الحديد من الميناء وكان من المفروض أن يمر هذا الخط وسط مقابر المُسلمين من أهل المدينة، وأثارت هذه الحادثة كُل مشاعر الحنق التي كان الأهالي يشعرون بها، فلم يعد كافيًا ما يشعر به أهالي المدينة من إهانات يومية بل وصل الأمر إلى إهانة موتاهم، فوقعت الاضطرابات، وتذكر المصادر الغربية بأسى سقوط ثمانية قتلى من الأوربيين ولا تعتني كثيرًا بذكر من قُتل من المغاربة، ولكنها كانت حجة مناسبة تنتظرها فرنسا مُنذ زمن كي توجه أساطيلها إلى المدينة التعيسة وتبدأ في قصفها بعنف بالغ ثم لتعلن فرضها الحماية على المغرب كُله في عام 1907م.

ويصف والتر هاريس الذي كان يعمل مُراسلًا لجريدة (التايمز) اللندنية في الدار البيضاء وقد كان شاهدًا حيًا على جريمة القصف فيقول:

ـ ظهرت السُفن الحربية الفرنسية في الأفق، وفي الوقت الذي كانت تهبط

فيه وحدات من الجيش لحماية الأوربيين، بدأت السُفن في قصف الأحياء الوطنية، وهكذا أصبح المغاربة بين نارين، نار المدافع ونار الجنود في الداخل، فلقد أصبح المشهد مليئًا بالرعب وارتكبت في (كازابلانكا) كُل أنواع الجرائم، فلقد شاهدت بعد أيام من القصف العديد من جُثث الناس والجياد مازالت مُلقاة في الشوارع، بينما تناثرت محتويات البيوت المُدمرة يخرج منها الجرحى زاحفين على بطونهم طالبين المعونة دون جدوى، وفي وسط المدينة لم أقابل غير نساء يصرخن في جنون لفقدهن أطفالهن.

هكذا كانت بداية الاحتلال الفرنسي للمغرب العربي التي استمرت حتى عام 1956م حين وقع الملك المغربي محمد الخامس اتفاقية إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال المغرب، وفي الحق أن هذه السنوات الستين لم تكن سهلة، لقد كانت مليئة بالتمردات والثورات ودفع شهداء المغرب ثمنًا غاليًا لهذا الاستقلال.

مسجد الحسن الثاني

وفي حي (الأحباس) توجد نفحة من نفحات الأندلس المعمارية، فالأحباس تعني الأوقاف وليس المساجين، والحي ليس قديمًا كما يُوحي تصميمه المعماري ولكن تم بناؤه بعد دمار المدينة من جراء القصف الفرنسي، فلقد قامت سُلطات الاحتلال ببناء هذا الحي وفق التقاليد الأندلسية والمغربية القديمة، فهناك بوابة مقوسة تدخل منها إلى الساحة الرئيسية، فتجد نفسك فجأة وقد خرجت من أسر المباني العصرية وأحاطت بك المباني ذات القباب البيضاء والممرات المسقوفة والأبهاء المتصلة المزينة بالمقرنصات والآيات القرآنية، لقد تحول هذا

المكان إلى موطن للحرف الشعبية والمكتبات المتنوعة، فقد كان هذا المكان مدهشا، لقد كشف عن الوجه الثقافي الغني للمدينة، مئات من الكتب المؤلفة والمترجمة في كل فنون المعرفة، ومعظمها كتب جادة لا يغلب عليها كتب الطبخ والعفاريت كما في العديد من المكتبات، فالشعب المغربي قارئ جيد لولا أن قدرته الشرائية ضعيفة وأثمان الكتب أصبحت باهظة الثمن.

***

طنجـــة

(العاصمة الصيفية للمغرب)

طنجة مدينة بديعة الطبيعة والروح، وكانت تُسمي قديماً بطنجة البيضاء، وسُميت هكذا يوم كانت مدينة دولية، بل أكثر مُدن العالم دولية فكان كثير من نجوم الفن يأتون للزيارة فيمكثون بها فترات طويلة، ولقد زال عنها طابع المدينة الدولية الواقعة تحت نفوذ الأعلام الغربية العديدة لكن قدرتها على الإغواء لم تزل، إنها تجتذب البشر من كُل بقاع الدنيا، وتجتذب المغاربة من كُل حدبٍ وصوب.

فطنجة حمامة بيضاء حطت على كتف إفريقيا بتوازن مرهف. منذ فجر وجودها في القرن الرابع قبل الميلاد وهي تشاهد المتصارعين من أجل الفوز بالنفوذ عليها سواء كان القرطاجيون، أو الرومان، أو الفينيقيون، أو العرب، أو البُرتغاليون، أو الإنجليز، لكنها ظلت تمتلك نفوذها الخاص على كُل من أتوا إليها. فطنجة هي مدينة ساحرة، فهي السحر الذي أغوى يوليسيس، والسحر لا يمكن تفسيره فإذا فسرناه لم يعد سحرًا.

وهذه المدينة يصب فيها مُعظم التيارات بصفتها جسرًا، هذا بالإضافة

لكونها ميناء، فهي بحق مدينة أسطورية، وذلك بسبب قُدرتها على الإيحاء بالخيال الذي يُحلق عاليًا بارتفاع أسطورة، فهي أقرب بوابات إفريقيا إلي أوربا، وهي زاوية الإطلال على لقاء البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي، وهي نموذج لحوار البر والبحر، وهو حوار لم يكن دائمًا هادئًا، بل كثيرًا ما كان داميًا، وقليلًا ما كان عادلًا، ولكنها لطبيعة قوية فيها، استطاعت طنجة أن تُذيب في نسيجها كُل من هبط على برها وإلا لفظته.

تقع مدينة طنجة في مواجهة الساحل الجنوبي لأسبانيا، وتسمى بوابة المغرب العربي وقد اختارها الملك الحسن الثاني لتكون العاصمة الصيفية للدولة، ووفقًا للأساطير اليونانية تأسست طنجة على يد العملاق أنتيوس في عام خمسمائة قبل الميلاد، وفي القرن الخامس الميلادي احتلت قبائل الفاندال مدينة طنجة ومنها استطاعوا العبور إلى شمال أفريقيا، وبعد مرور قرن من الزمان وقعت طنجة تحت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية، ثُم طواها النسيان تدريجيًا حتى استولى عليها موسى بن نُصير في السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادي. وبحلول القرن الرابع عشر أصبحت طنجة من أهم الموانئ على البحر المتوسط حيث كانت تتردد عليها سُفن التجارة الأوروبية المُحملة بالأقمشة والتوابل والمعادن وطيور الصيد، وكانت تستبدلها بالجلود والصوف والسجاد والحبوب والسُكر، وقد تنقلت مدينة طنجة فيما يقرب من ثلاثة قرون، ما بين الأسبان، والبُرتغال، وأخيرًا الإنجليز.

وبدأت مدينة طنجة في الانتعاش في حوالي مُنتصف القرن التاسع عشر عندما تنافست الحكومات الاستعمارية الأوروبية في بسط نفوذها على المغرب العربي، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية كانت طنجة تحت السيطرة الكاملة لأسبانيا، ثُم عادت لتخضع للحكم الدولي مرة أخرى في عام ألفٍ

وتسعمائة وخمسة وأربعين ميلادية. ولذا تأثرت طنجة كثيرًا بالحياة الأوروبية وهي ما زالت تحتفظ بمظاهر تلك المؤثرات العديدة، وبحصول طنجة على الاستقلال عام ألفٍ وتسعمائة وستة وخمسين ميلادية أصبحت جُزءًا من المملكة المغربية، ومن أكثر مناطق الجذب السياحي فيها.

وأهم ما يُميزها تلك التلال الخضراء المكسوة بغابات الصنوبر ومنار رأس سبارطل أقصى نقاط الشمال الغربي للقارة الإفريقية، حيث الجبل بصخوره البُنية الحمراء التي تنبثق من جنباتها الخضرة، و«الشرف» المطل على الخليج، وقوس البيوت على التلال يحدق بدائرة الماء، وشارع أسبانيا بنخيله الباسق، والسوق الهابط تحت شُرفة المدافع المُطلة على الماء، والهبوط والصعود والالتفاف في الدروب النحيلة بين بيوت حي القصبة، وبوابة البحر الهائلة القديمة، والرحبة المطلة على الميناء، وحيث زرقة المياه واحدة عائدة بالمغاربة من أوربا القريبة وأخرى ذاهبة إليها، وبهجة الإطلال على تلال مالاباطا وبيوتها البيضاء الرانية إلى الماء، ومياهها الهادئة فيروزية اللون، وكذلك البيوت في حُضن الجبال الخُضر.

وتتميز طنجة المغربية بكونها نقطة التقاء بين البحر الأبيض المتوسط من جهة، وبين القارة الأوروبية والقارة الإفريقية من جهة أخرى. هذه الوضعية الإستراتيجية الهامة مكّنتها من الاستئثار باهتمام الإنسان، وجعلت منها محطة اتصال وعبور وتبادل الحضارات مُنذ آلاف السنين، مما تشهد عليه المواقع والبقايا الأثرية الموجودة بطنجة ومنطقتها، والمنتمية إلى حضارات ما قبل التاريخ وحضارات الفينيقيين والبونيقيين التي ربطت اسم طنجة في أساطيرها العريقة باسم «تينجيس» زوجة «آنتي» ابن «بوسايدون» إله البحر، و«غايا» التي ترمز للأرض، ثُم الفترة الرومانية التي خلالها أصبحت

طنجة تتمتع بحق المواطنة الرومانية، ومن المُحتمل جدًا أن تكون روما قد جعلت من طنجة عاصمة لموريتانيا الطنجية، المقاطعة الغربية لروما بشمال إفريقيا.

استعادت طنجة حيويتها مع انطلاق الفتوحات الإسلامية لغزو الأندلس على يد طارق بن زياد عام 711م، ثُم من طرف المرابطين والموحّدين الذين جعلوا منها معقلًا لتنظيم جيوشهم وحملاتهم. بعد ذلك تتالت على طنجة فترات الاحتلال الأسباني والبرتغالي والإنجليزي منذ 1471م إلى 1684م، والتي تركت بصماتها حاضرة بالمدينة العتيقة، كالأسوار والأبراج والكنائس.

لكن تبقى أهم مرحلة ثقافية وعمرانية مميزة في تاريخ طنجة الوسيط والحديث، هي فترة السلاطين العلويين، وبخاصة المولى إسماعيل، وسيدي محمد بن عبد الله، فبعد استرجاعها من يد الاحتلال الإنجليزي عام 1684م في عهد المولى إسماعيل، استعادت طنجة دورها العسكري والدبلوماسي والتجاري كبوابة على دول البحر الأبيض المتوسط، و بالتالي عرفت تدفقًا عمرانيًا ضخمًا، فشيدت الأسوار والحصون والأبواب. وازدهرت الحياة الدينية والاجتماعية، فبنيت المساجد والقصور والحمامات والأسواق، كما بُنيت الكنائس والقنصليات والمنازل الكبيرة الخاصة بالمُقيمين الأجانب، حتى أصبحت طنجة عاصمة دبلوماسية بعشر قنصليات عام 1830م، ومدينة دولية يتوافد عليها التُجار والمُغامرون من كُل الأنحاء نتيجة الامتيازات الضريبية التي كانت تتمتع بها.

طنجة لا تخلوا من الأساطير، فهي مُلتقي الشرق والغرب، كما يجيء ليلها فلا تنام، حيث يظهر ذلك عندما تنظر إلى البحر المتوسط حيث يلوح جبل طارق من ربوة منار مالاباطا على بُعد عشرة كيلومترات شرقًا، وعلى بُعد

أثنى عشر كيلو مترًا إلى الغرب فيلتقي المتوسط بالمُحيط عند رأس سبارطل، وتلتقي الصخور بالأساطير على مقربة من رأس سبارطل في مغارة هرقل، وهو الكهف العميق، ونافذة تحت الجبل تطل على مياه الأطلسي وترسم وجه رجل صارخ، وفي السقف دوائر غائرة في قبة الحجر. إنها الرحى التي قُدت من بدن الكهف لتُعد طحين الناس، فالأسطورة القديمة تختلط بخبز البشر في هذه البُقعة، والأسطورة تقول إن المكان كان مُمتدًا يصل إفريقيا بأوربا ويفصل بحر الروم (البحر المتوسط) عن بحر الظُلمات (المُحيط الأطلسي)، ولما كان لأطلس ابن نبتون (إله البحر) ثلاث بنات يعشن في بستان يطرح تفاحًا ذهبيًا ويحرسهن وحش.

قاتله هرقل (ابن جوبيتر) وهزمه، ولكن هرقل في غضبة من غضبات الصراع ضرب الجبل فانشق لتختلط مياه المتوسط الزرقاء بمياه الأطلسي الخضراء وتنفصل أوربا عن إفريقيا، ثُم يزوج هرقل ابنه سوفاكيس لإحدى بنات نبتون ليُثمر زواجهما بنتًا جميلة أسموها طانجيس، ومنها كانت طنجة. وتمتد أسوار المدينة العتيقة على طول 2200م، ومسيِّجة بأحياء خمسة للمدينة العتيقة: القصبة، دار البارود، جنان قبطان، واد أهردان، وبني إيدر، وبُنيت هذه الأسوار على عِدة مراحل والتي من المُحتمل جدًا أنها بُنيت فوق أسوار المدينة الرومانية «ينجيس»، وتُؤرخ الأسوار الحالية بالفترة البُرتغالية (1471 ـ 1661م)، إلا أنها عرفت أشغال ترميم وإعادة بناء وتحصين خلال الفترة الإنجليزية (1661 ـ 1684م)، ثُم فترة السلاطين العلويين الذين أضافوا تحصينات عديدة في القرن الثامن عشر، حيث دعّموا الأسوار بمجموعة من الأبراج: برج النعام، برج عامر، برج دار الدباغ وبرج السلام. كما فتحوا فيها 13 بابًا، ومنها: باب القصبة، باب مرشان، باب حاحا، باب البحر، باب العسّة، باب الراحة وباب المرسى. تقع قصبة غيلان على الضفة اليُمنى

لوادي الحلق على الطريق المؤدية إلى مالاباطا شرق المدينة العتيقة، تم بناؤها حوالى 1664م، ويرتبط اسمها باسم غيلان قائد حركة الجهاد الإسلامي، ضد الاستعمار الإنكليزي الذي احتل مدينة طنجة ما بين 1662م و1684م.

وللقلعة جهاز دفاعي مُحكم، وهو عبارة عن سورين رباعيّي الأضلاع مُحصّنين ببُرجين نصف دائريين وبارزين، وتتوسطهما أبواب عمرانية ضخمة، ويحتل قصر القصبة أو دار المخزن موقعًا استراتيجيًا في الجهة الشرقية من القصبة، ومن المُرجح جدًا أنه استعمل خلال فترات أخرى من التاريخ القديم. بني قصر القصبة أو قصر السُلطان مولاي إسماعيل، من طرف الباشا علي أحمد الريفي على أنقاض «القلعة العليا» الإنجليزية، وهو يحتوي على مجموعة من المرافق الأساسية كالدار الكبيرة، وبيت المال، والجامع، والمشور، والسجون، ودار الماعز، والرياض. وفي عام 1938م تحوّل القصر لمُتحف لطنجة ومنطقتها. ويقوم الجامع الكبير على مقربة من سوق الداخل. وكان قد تم تحويله إلى كنيسة خلال فترة الاستعمار البُرتغالي وأُعيد جامعًا بعد استرجاعه في عام 1684م وعرف عدة أعمال ترميم وتوسيع خلال الفترة العلوية. وتتميز هذه المعلمة ببهائها وغنى زخارفها، حيث استعملت فيها كُل فنون الزخرفة، من فسيفساء ونقش ونحت وكتابة على الخشب والجبس، ويحتوي الجامع الكبير على بيت للصلاة مكوّن من ثلاثة أروقة متوازية مع حائط القبلة وصحن مُحاط من كُل جانب برواقين، وبذلك يُعتبر نموذجًا للمساجد العلوية المعروفة ببساطة هندستها.

يقع جامع الجديدة الذي يُعرف كذلك باسم جامع عيساوة وأحيانًا بمسجد النخيل، أمام الزاوية العيساوية على زنقة الشرفاء، ويتميز بمنارته ذات الزخارف الفسيفسائية. ويقوم جامع القصبة بزنقة بن عبو، وبُني

على يد الباشا علي أحمد الريفي، كما ويُعتبر من مُلحقات قصر القصبة، أو ما يُسمى بدار المخزن، أما الكنيسة الأسبانية فبعد أن قضت فترة في ملكية أسرتين يهوديتين، اشتراها السلطان محمد بن عبد الله حوالي 1760م، وتم إهداؤها للحكومة السويدية لتؤسس فيها أول قنصلية لها عام 1788م. وفي 1871م استغلها الحاكم الأسباني ليجعل منها إقامة للبعثة الكاثوليكية، فبنى فيها كنيسة كبيرة سماها «لابوريشيما» على السيدة مريم، أو السيد المسيح. لكن منذ حوالى ثلاثين سنة، ولأن المسيحيين لم يعودوا يترددون على الكنيسة بكثرة، أصبحت المُؤسسة تعنى بأنشطة اجتماعية مُختلفة، أما حاليًا فلم يبق من البناية سوى الجُزء العلوي من السُلم الرئيسي.

***

إميلشيل

يُعد موسم (إميلشيل) للخطوبة الذي تقيمه عمالة (محافظة) (الرشيدية) من 19 إلى 21 سبتمبر قبلة الـزوار والسيّاح الأجانب (غير العرب) والمغاربة، فضلًا عن الباحثين في الفلكلور والأنثروبولوجيا وغيرهما، نظرًا لما تنطوي عليه هذه المظاهرة الشعبية، التي لا مثيل لها في العالم، من طابع أسطوري معجون بالخيال الشعبي لسكان قبائل (آيت حديدو) القابعة في جبال الأطلس على علو 2000 متر.

يجتمعون في هذه الفترة من العام المتزامنة مع موسم الحصاد لتخليد أسطورة بحيرتي (إيسلي) و(تيسليت) وتعني بالأمازيغية: الخطيب والخطيبة.

والمُوسم في المملكة المغربية يُضاهي المولد في مصر المحروسة. وأظن أن الأخيرة ورثت الموالد من المغرب، والمملكة المغربية تعد بحق أم المواسم،